كلاسيكيات جدل
JADAL CLASSICS

ستيفان زفايغ

الشمعدان المفقود

ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي

رواية

جدل
منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

الشمعدان المفقود

الشمعدان المفقود

ستيفان زفياغ

ترجمة:وليد أحمد الفرسيشي

العنوان الأصلي باللغة الإنجليزية

Lechandelier enterre
Setfan zweig
2004

الطبعة الأولى: أغسطس 2022م

ISBN: 978-9921-774-52-8

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر©

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر. اعملوا معنا في نشر وعي الحفاظ على حقوق الطبع والنشر، النجعل عملية الإبداع أكثر أمانًا.

منشورات جدل©
JADAL PUBLISHING

دولة الكويت

المملكة العربية السعودية

جمهورية مصر العربية

(+965) 99900921

(+966) 554658820

WWW.JADALBOOKSTORE.COM

JADAL PUBLISHING
JADALBOOKSTORE

ستيفان زفياغ

رواية

الشمعدان المفقود

ترجمة

وليد أحمد الفرسيشي

حدث الأمرُ في أحد الأيّام شهر حزيران الجميلة من عام 455 ميلادية.

كانت المواجهة بين مصراعين هيروليّين[1] ضخمين وقطيع من خنازير هيركانيا[2] البريّة، قد انتهت في تلك اللحظة مخلّفة وراءها بحيرة من الدّماء في ساحة سيرك ماكسيموس بروما[3]، عندما اجتاحت موجة توتّر مباغتة قلوب آلاف المتفرّجين، في حدود الساعة الثالثة من ظهر ذلك اليوم، وانتشرت في المكان بسرعةٍ رهيبة.

قبل ذلك بلحظات، تفاجأ جيرانُ المقصورة الشرفيّة المفروشة بأفخر أنواع السجّاد والمزيّنة بالتماثيل، حيثُ كان الإمبراطور «ماكسيموس» يجلسُ بين ضبّاط قصره، برؤية رسول معفّر بالغبار، كان يبدو من هيئته أنّه ترجّل عن فرسه للتوّ بعد رحلةٍ من الركض المحتدم، وهو يدخلُ المقصورة.

وما كاد الرّسول يبلغ إمبراطوره بما يحمله من أخبار حتّى نهض الأخيرُ من مجلسه ضاربًا عرض الحائط بكلّ الأعراف وغادر المقصورة مسرعًا، تتبعه حاشيته بالعجلة العجيبة نفسها، وأخليت كلّ الأماكن المخصصة لأعضاء مجلس الشيوخ وأصحاب المناصب البارزة. في تلك اللحظة، طفقت الأبواقُ تعلنُ عن العرض الدموّي القادم، لكنّ همهمةً خافتة سرت بين المتفرّجين وقد أنبأهم رحيل إمبراطورهم المفاجئ بوقوع أمرٍ جلل.

---

(1) مصارعان من عرقية الهيروليون. والهيروليون هم شعب جرماني بدوي، وكانوا خاضعين للقوط الشرقيين والهونيين والبيزنطيين من القرن الثالث حتى القرن الخامس ميلادية. (جميع الهوامش من وضع المترجم).

(2) هيركانيا هي منطقة فارسية قديمة تقع إلى الجنوب الشرقي من بحر القزوين.

(3) سيرك ماكسيموس بروما، يعدّ أحد أقدم البنايات الرومانية وأكبرها في روما، العاصمة الإيطالية. كان يحتضن في عهد الإمبراطورية الرومانية الغربية الصراعات وسباقات عربات الخيل والمسرحيات والاحتفالات الدينية.

في تلك اللحظة، اندفع أسد نوميديّ ذو لبدة سوداء من أحد الحواجز المفتوحة وهو يطلق زئيرًا صاخبًا، وصدحت الأبواق مرّة أخرى لتعلن عن المواجهة الوحشيّة المرتقبة بين الأسد وبين المجالدين ذوي السيوف القصيرة، لكن الحشود لم تلق بالًا للأمر، فما استبدّ بها من قلقٍ، فضحه رذاذ الأفواه الباهت المندلق على الوجوه الحائرة المتسائلة، كان أقوى من أن يقاوموه، فاندفعوا، وقد تعاظم اضطرابهم وزادت بلبلتهم، في كلّ الاتجاهات.

كانوا قد نهضوا من أماكنهم على حين غرّة، وهم يشيرون إلى أماكن النبلاء الفارغة، متسائلين فيما بينهم عن سبب رحيلهم المفاجئ، ثمّ طفقوا يُحدثون هرجًا ومرجًا ويطلقون صافرات الاستهجان. وفي تلك اللحظة بالذات، سرى بينهم الخبر المروّع، خبرًا لا أحد يعرفُ مصدره، فقال فريق منهم إنّ الوندال[4]، قراصنة المتوسّط المرعبين، نزلوا بأسطولهم الضخم في ميناء «بورتس»، وأضاف آخرون أنّ البرابرة كانوا يزحفون فعلاً على المدينة المذهولة عمّا يحدث فيها!

وما إن سرى اسم «الوندال» على الألسن، حتّى تحوّل ما كان يتهامسونه سرًّا إلى صرخة عظيمةٍ اندفعت من مئات بل من آلاف الصدور التي راحت تردّد كلمة واحدة: «البرابرة! البرابرة!».

كان الأمرُ أشبه بعاصفة هوجاء اجتاحت المسرح، إذ اندفعت الجماهيرُ نحو المخارجِ، وترك الحرّاس مواقعهم وهربوا مع من هرب، وهم يتقافزون فوق المقاعد، ويشقُّونَ طريقهم باللكمات ومقابض السيوف، ويدهسون النساء والأطفال في

(4) الوَندال (أو الفَندال) هم أقوام ينحدرون من القبائل الجرمانية الشرقية، اقتطعوا أجزاء من الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي وأسسوا لهم دولة في شمال أفريقيا مركزها مدينة قرطاج. في سنة 455 اقتحم الوندال مدينة روما وعاثوا فيها فسادًا وخربوها تخريبًا عظيمًا.

طريقهم غير آبهين بصرخاتهم الحادّة. وسرعان ما تشكّلت دوّامات بشرّية أمام المخارج، راحت أصواتها تضجُّ بالصراخِ والشكوى. وفي لمح البصر، أخليَ الكولوسيوم[5] من جمهوره، وقد كان يحتضن، قبل دقيقة من ذلك، أكثر من ثمانين ألف متفرّج كانوا يشكّلون كتلة بشريّة داكنة صاخبة.

وعلى ذلك النحو المباغت، خيّم الصمتُ على ساحة النزال[6] المهجورة حتّى بدت، تحت أشعة الشمس الحارقة، أشبه بمقطع حجريّ متروكٍ. كان الأسدُ المنسيّ هو آخر من بقي داخل الحلبة، بعد أن هرب المصارعونَ مع من هرب، فراح يتحرّك وسط تلك العزلة المفاجئة، نافضًا لبدته ومطلقًا بين الفينة والأخرى زئيرًا متحدّيًا.

كان ما تداوله الجمهور من أخبار بشأن البرابرة صحيحًا. وما لبث الرّسل أن نشروها في المدينة فزادوا من ذعر أهلها. كان الوندالُ -وهم قومٌ لا تعوزهم الفتوة أو النّشاط- قد قدموا على متن مئات من السّفن الشراعية والقوارب، ونزلوا فعلًا في ميناء المدينة، وما لبثت طلائعهم -وقد كانت مشكّلة من الفرسان النوميديين والبربر ذوي العباءات البيضاء- أن سارعت إلى شارع بورتنسيس[7] فاخترقته بأقصى سرعة تسمح بها خيولهم ذات الرقاب الطويلة. ولقد بدا واضحًا للعيان، أنّ أفواج جيش «المخرّبين»[8] ستصل إلى أبواب روما في اليوم التالي، أو اليوم الذي يليه، لأنّ

---

(5) اعتمد المترجم على مفردة «الكوليسيوم» لتعويض الكناية المستخدمة من طرف المؤلف. ذلك أن الكوليسيوم أو ما يسمى المدرج الفلافي كان تشكيله المعماري كامل الاستدارة أو بيضاويًا تمامًا.

(6) ساحة أو الآرينا (المفردة التي استعملها المؤلف) كانت تستخدم في قتال المصارعين والمسابقات الجماهيرية.

(7) :Via Portuensis هي طريق رومانية قديمة بناه الإمبراطور كلاوديوس، على الضفة اليمنى من نهر التيبر، كانت تربط ميناء «بورتس» بالمدينة.

(8) المخربون هي إحدى التسميات الشائعة التي تطلق على الوندال، ويعتقد أن اللفظ الفرنسي Vandalisme بمعنى النهب والتخريب مشتق من مفردة الوندال.

المدينةَ كانت بلا دفاعاتٍ، فمرتزقة الإمبراطورية كانوا في ذلك الوقت يخوضونَ حربًا ما في منطقة نائية عند نواحي» رافينّا»[9]. زد على ذلك، كانت حصونُ روما خربة، ولم يجرِ إصلاحها، منذ آخر زحفٍ تعرّضت له المدينة على يد ألاريك الأوّل[10]، فلا عجب، والحال على ما هو عليه، ألاّ يفكّر أحد من سكانها في مقاومة الوندال.

في غضون ذلك، عمد أغنياء المدينة وكبار قومها إلى بغالهم وعرباتهم فجهزوها على عجلٍ، لعلهم يتمكنون من إنقاذ أنفسهم وجزء من ممتلكاتهم على الأقلّ، لكنّ أوان رحيلهم كان قد فات، إذ قطع الأهالي الغاضبون عليهم الطريق، وحالوا بينهم وبين المغادرة، ذلك أنّ الشعب الغاضب لم يكن ليسمح لكلّ من استغلّه في زمن الرّخاء أن يتخلّى عنه في زمن المحنة، حتّى إنّ الإمبراطوار مكسيموس اُستُقبِل بوابل من الشتائم والحجارة، عندما أراد الفرار من قصره، قبل أن تقبض الجموع الهادرة على ذلك الجبان وتجهز عليه بالفؤوس والمطارق في الشّارع.

كانت المدينة قد غدت أسيرة رعبٍ لا فكاك منه عندما أغلق الحرّاسُ أبوابها كعادتهم في كلّ مساء، وأناخ الترقّب المذعور بكلكله على أهلها حتّى أثقل على منازلهم الصامتة المعتمة، كأن ضبابًا ثقيلًا فاسدًا نزل عليهم. في غضون ذلك، واصل الليل بسط عباءته على المدينة المهدّدة المرعوبة، رويدًا رويدًا، وأضاءت النجوم السّماء كالمعتاد، ومدّ القمر قرنه الفضيّ نحو القبة السماوية، كحاله في الليلة السابقة.

---

(9) رافينّا مدينة إيطالية بإقليم إميليا رومانيا. في العام 409 اجتاز ألاريك الأول ملك القوط الغربيين رافينا بسهولة، وقام باحتلال روما ونهبها.

(10) ألاريك الأول (حوالي 370—410) ملك القوط الغربيين بين عامي 395-410.

كان الأرقُ قد أصاب قلب روما المذعور، فأقعت خلف أسوارها تنتظرُ «البرابرة»، حالها في ذلك حال مُدانٍ استقرَّ رأسهُ على النطع، وظلّ ينتظر أن تهوي فأس الجلاّدِ المرفوعة على رقبته، وتُنزل به ما هو محتومٌ.

***

غادر الوندال الميناء في لبوس المنتصرين، وراحوا يتقدّمون ببطء وثقة ومنهجيّة داخل الطريق الرومانيّة المقفرة. كان الجرمانيون، وهم جنود من ذوي الجدائل الشّقر الطويلة، قد قُسِّموا إلى وحدات، كلّ واحدة منها مشكّلة من مئة محاربٍ كانوا يسيرون بانضباطٍ تحت إمرة سنتوريون[11]، يتقدّمهم أفراد قوات الاحتياط الصحراوية، وهم فرسان نوميديون، سمر الملامح، سود الشعور، يمتطون خيولًا أصيلة رائعة دون سروج، كانوا يدوّرون أعنّتها بعنف لتوجيهها في الطريق، فيما خصّص الوسط لجنسريك[12]، ملك الوندال، الذي طفق يوزّعُ ابتساماتِهِ من فوق صهوة جواده على أفراد جيشه الزاحف على المدينة. في واقع الأمر، كان المحاربُ العجوز المحنّك، راضيًا هانئ البال، لأن جواسيسه كانوا قد أخبروه قبل فترة طويلةٍ من الزّحف، أنّهُ لن يجد مقاومة جدّيّة من الرومان. وعلى ذلك النحو، راح يتقدمّ وسط جيشه وكلّه يقين بأنّهُ سيحظى بغنيمةٍ سهلةٍ دون أن يخوض أيّ معركة حاسمة.

(11) حسب التقسيم العسكري للجيش الروماني، السنتوريا هي كتيبة مكونة من مئة جندي يرأسها سنتوريون، أو قائد مئة. ولقد شاع هذا التقسيم لدى الجيوش التي احتكت في ما بعد بالجيش الروماني.

(12) غايسيريك أو جينسيريك أو جنسريك (بالاتون، 389م – قرطاج، 477 م) ملك الوندال ومؤسس المملكة الوندالية، وكان أحد اللاعبين الرئيسيين في متاعب الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي. اشتهر عهده بزحفه على روما سنة 455.

ولقد حدث الأمرُ كما توقعه، فلم يرَ أيّ عدوٍّ في الأفق، حتى إذا وصل إلى بورتا بورتنسيس[13]، عند مبتدأ الطريقِ المعبّدةِ التي تشقّ المدينة، ألفى البابا ليون[14]، بشاراته وأوسمته وقساوسته، قد سار بنفسه لاستقباله. والحقّ أنّ تلك لم تكن أوّل مرّة يتنقّل فيها البابا لاستقبال أحد الغزاة، فقبل بضع سنواتٍ من زحف الوندال، سار لاستقبال أتيلاّ الرهيب[15] وتوسّلهُ أن يستحيي روما، فقطع له الوثنيّ عهدًا بذلك ودخل المدينة بسهولةٍ عجيبةٍ.

عندما وقعت عينا جنسريك على الرّجل العجوز المهيب ذي اللحية البيضاء، ترجّل على الفور وتقدّم منه وهو يعرج، لأنّه كان يعاني قصرًا في ساقه اليمنى، فحيّاهُ بأدبٍ لكنّه لم يقبّل، مع ذلك، يده التي يحملُ خنصرها خاتم القديس بطرس، ولم يركع أمامه، لأنّه كان أريوسيّا[16] يرى في بابا الكاثوليك مغتصبًا للديانة المسيحية، مثلما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعدّه هي الأخرى هرطوقيًّا من ذوي البدع.

أنصت جنسريك بازدراءٍ باردٍ إلى خطبة قداسة البابا الحماسيّة، وكان قد ألقاها عليه باللغة اللاتينية، وإلى توسلاته باستحياء مدينة الربّ المقدّسة، فطمأنه قائلاً، على لسان مترجمه، إنّ روما يجب ألا تخاف منه، فهو ليس بربريًّا بل جنديًا ومسيحيًّا تقيًّا فوق ذلك. وأضاف أنّه لن يحرق روما أو يخرّبها، رغم كلّ ما ارتكبته المدينة الغاشمة من جرائم إبادة في حق الآلاف المؤلفة على مرّ السنين. وزاد فأعلن بشهامةٍ أنّ قواته لن تتعرّض إلى أملاك الكنيسة أو تعتدي على النساء، بل سيكتفي بنهب المدينة، دون

---

(13) بوابة رومانية قديمة، تعتبر جزءًا من الأسوار الأوريليانية التي كانت تحمي بالكامل مدينة روما.

(14) ليون الأول أو لاون كان أسقف روما من 29 سبتمبر 440 إلى 10 نوفمبر 461. فشل في إقناع جنسريك بالارتداد عن روما، وكل ما استطاع أن يحصل عليه منه هو وعده بأن يمتنع عن ذبح السكان وتعذيبهم وإحراق المدينة.

(15) ملك هوني عاش بين عامي (395–453 م) كان آخر حكام الهون وأقواهم وأسس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطورية شاسعة.

(16) الأريوسية أو الأريانية مذهب مسيحي ينفي ألوهية عيسى المسيح.

حرق أو تدمير[17]. ولم ينس، بينما كان يعتلي جواده بمعاونة سائسه، أن يدعو سلطات المدينة، بلهجةٍ حملت تهديدًا واضحًا، إلى فتح الأبواب بلا إبطاء أو تأخير.

ولقد جرت الأمورُ بعد ذلك كما اشترط جنسريك، فلم يُرفع في وجه جيشه رمحٌ واحد، وبقيت سيوف الرومان في أغمادها. وعلى ذلك النحو، سقطت روما بأسرها بين أيادي الوندال في أقلّ من ساعةٍ. في المقابل، لم تنتشر فيالق القراصنة المنتصرة داخل المدينة العزلاء وكأنها قطعان جامحة، بل دخل الجنود ذوو الشعور الكتانية- وقد كانوا محاربين أشدّاء، ضخام الأجسام، أشرف جنسريك بنفسه على تدريبهم بيدٍ من حديد- المدينة في صفوف متقاربة واجتازوا شارع تريونفاليس[18] بهدوء، وهم يرشقون آلاف التماثيل ذات العيون البيض والشفاه البكماء بنظراتهم الفضولية، وكأنما رأوا في بكمها وعدًا بغنمٍ عظيم.

وما لبث جنسريك أن تحوّل بنفسه إلى البالاتينوم، قصر الإمبراطور المهجور، لا ليتلقى المدائح المنافقة من أعضاء مجلس الشيوخ المرتعبين أو يشهد احتفالًا مقامًا على شرفه- حتّى إنّه ألقى نظرة تكادُ تكون لامبالية على ما جلبه الأعيان الأثرياء من هدايا طمعًا في كسب ودّه- وإنّما لينكبّ على خريطةٍ نشرت أمامه. ودون إبطاء، وضع المحاربُ العتيد، خطّة تمكنه من نهب المدينة في أقلّ وقتٍ ممكنٍ وبالجملة.

كانت تلك الخطّة تقضي بتقسيم المدينة إلى مقاطعات، تعهد كلّ واحدة منها إلى كتيبة من مئة جندي يقودها قائد مئة[19] كان في الآن نفسه مكلّفًا بمراقبة سلوك جنوده. ولقد كان من شأن تلك الخطّة ألا تعرّض المدينة إلى عمليّة سلبٍ غاضبةٍ،

(17) التعبير الذي استخدمه المؤلف هو « sine ferro et ignei » وهي عبارة لاتينية تعني «لا حرق، لا تدمير.»

(18) طريق النصر أو شارع النصر. كان يربط، في روما القديمة، بين الكوليزي وسيرك ماكسيموس ويمتد حتى قوس قسطنطين.

(19) سنتريون أو قائد مئة: قائد كتيبة مكونة من مئة جندي.

فوضوية، وإنّما إلى نهب محسوبٍ منظّمٍ، ولذا أمر جنسريك، قبل أن يشرع في تنفيذها، بإغلاق كلّ أبواب المدينة، ثمّ عيّن حرّاسًا عليها، حتى لا يفلت مشبك واحد أو قطعة نقديّة أو أيّ شيء ثمين من تلك المدينة الهائلة.

كما أمر جنوده بمصادرة كلّ القوارب والمركبات والدواب والعبيد، لكي يتمكن من نقل ما تحتويه روما من ثروات، إلى وكره، في أرض أفريقيّة[20] بأسرع وقتٍ ممكن. وما إن فرغ جنوده من تنفيذ ما أمرهم به حتّى بدأ نهبُ روما بهدوء ونظامٍ وحسّ عمليّ كبير.

وعلى امتداد ثلاثة عشر يومًا، نجح الهمجيّون، بسهولةٍ وبراعةٍ، في إفراغ المدينة من كنوزها وتجزئتها، كما يجزّئ الجزّارُ لحم الثور. كانت كلّ كتيبة تنتقل من منزل إلى آخر، ومن معبدٍ إلى آخر، يتقدّمها أميرٌ وندالي وبرفقته كاتب سجّلاتٍ، فتنهب كلّ ما كان ثمينًا ويسهلُ نقله: المزهريات الذهبية والفضية، القلائد، العملات، المجوهرات، سلاسل العنبر المجلوبة من الشمال، معاطف الفراء الترانسيلفانية[21]، معدن المالاكيت[22] الذي انتزع من الجسور، السيوف الفارسية، إلخ، وتجبر الحرفيين على فصل اللوحات الفسيفسائية، بحرص شديدٍ، من جدران المعابد ونزع ألواح الرخام السّماقي[23] من الأروقة. ولقد جرى تنفيذ كلّ ذلك، بحذر وبراعة ودقة. من ناحيتهم، قام العمّال بإنزال العلّاقات البرونزية من أقواس النصر، مستخدمين

(20) كانت قرطاج مركز حكم المملكة الوندالية، الأمر الذي اعتبره المؤرخون، بعد زحف الوندال على روما في العام 455، انتقامًا متأخرًا من قرطاج لخسارتها الحرب البونيقية الثالثة ضد روما.

(21) نسبة إلى إقليم ترانسيلفانيا في رومانيا.

(22) نوع من أنواع النحاس يميل لونه إلى الأخضر..

(23) نوع من الأحجار الرخامية.

الرّافعات لكيلا تتعرّض للتلف، وفككوا قراميد سقف معبد جوبيتر كابيتولينوس[24] المذهبة، الواحدة تلو الأخرى، مستعينين في ذلك بالعبيد، حالما انتهى الوندال من نهب المبنى من الداخل.

في غضون ذلك، أمر جنسريك بقطع الأعمدة البرونزية وكسرها باستخدام المطارق، لأنّها كانت شديدة الضخامة ويصعب نقلها، أو على الأقلّ نقل ما فيها من معادن على وجه السرعة.

وعندما فرغ الوندالُ من نهب منازل الأحياء بالجملة، التفتوا إلى مدافن الموتى وانتهكوها. فامتدت أياديهم الدنسة إلى النواويس الحجرية، وانتزعت أمشاط الماس من شعور الأميرات الراحلات والأساور الذهبية من بقايا هياكلهنّ العظمية. كما سرقوا مرايا الموتى المعدنيّة وخواتمهم، ولم تسلم من أصابعهم الجشعة حتّى الصدقات، وهي عملات معدنيّة كانت توضع في أفواه الموتى، لكي يقدمها أولئك إلى المرشد فيُسمح لهم بالعبور إلى مملكة بلوتو[25].

بعد ذلك، قاموا بتجميع ما حصّلوه من عمليّات النهب المختلفة ورتبوها في أكوامٍ منفصلة، بغير تمييز، حتى إنه كان بوسع المرء أن يرى تمثال النصر المجنّح الذهبي وهو يرقدُ إلى جوار تابوتٍ محلّى بالأحجار الكريمة، كان يضمّ قبل برهةٍ رفات أحد القديسين، أو قرب لعبة زهر النّرد كانت على ملك إحدى النبيلات. كما كان بالإمكان رؤية سبائك الذهب والفضة وهي مكوّمة بالقرب من الأقمشة الأرجوانيّة والأواني الزجاجية أو مكدّسةٌ إلى جوار المعادن الخشنة. وكان الكاتبُ

(24) معبد مخصص لأول الآلهة الرومانية، وكان مقامًا مقام فوق هضبة الكابيتوليوم التي أسس روميلوس مدينة روما عند سفحها.

(25) المقصود هنا هو تلك العملة المعدنية التي توضع في فم الميت قبل الدفن ليقدمها إلى خارون الذي كان يسهل عبورهم إلى مملكة الموتى.

يسجّل في تلكم الأثناء كلّ ما تمّ تحصيلهُ بأحرف رونية[26] قاسية، فوق رقٍّ كبير لكي يضفي مظهرًا شرعيًّا على عمليات السلب.

راح جنسريك يتجوّل وسط كلّ تلك الفوضى، وفي إثره أفراد حاشيته، تارةً يهشُّ على كلّ ما يقع تحت يديه بعصاه، وتارة يتفحّص المجوهرات، وتارة أخرى يبتسم علامةً على الرّضا، وهو يشاهد العربات والقوارب، وقد امتلأت عن آخرها بما وقع نهبه. والحقّ إنّه كان عند وعده، فلم يحرق جنوده منزلًا أو سفكوا دمًا إبّان نهب روما.

كان رتلان من العربات، أحدها ممتلئ بالغنائم والآخر فارغ، يسافران كلّ يومٍ بهدوء وانتظام، من المدينة إلى البحر ومن البحر إلى المدينة، مثل دلاء المناجم، حتّى أنّت الثيرانُ والبغال تحت أثقالها وتعالى لهاثها. ومهما يكن من أمر، فلم يحدث قطّ أن سجّل التاريخ -قبل نهب الوندال لروما- تحصيل ذلك الكمّ من الغنائم بمثل تلك السرعة.

وعلى امتداد ثلاثة عشر يوماً، لم يُسمع صوتٌ بشريّ واحد في المدينة الفائضة بسكانها. فباستثناء الوندال، لم يتجرّأ أيّ روماني واحد على رفع صوته بالحديث أو الضحك، حتّى إنّ الخرس أصاب المنازل والمعابد، فلم يُعزف على القيثارات لحن ولا ارتفع نشيد. كلّ ما كان يُسمعُ بين جنبات المدينة هو صوتُ المطارق التي كانت تحرّك ما كان يُعتقد دومًا أنّه ثابتٌ، أو قعقعة الكتل الحجرية وهي تتداعى، أو صرير عجلات العربات ذات الحمولة الزّائدة، أو هدير دواب الجرّ وقد أنهكها التعب وسياط سواقها، أو نباح الكلاب التي نسي أصحابها الخائفون إطعامها، أو نفير الأبواق ذات النغمات المنخفضة عند أحد المتاريس، في أوقات تبديل نوبات

(26) الحروف الهجائية الرونية هي حروف كانت تستخدمها اللغات الجرمانية قبل أن تعتمد الأبجدية اللاتينية.

الحراسة. نعم، لم يُسمع صوت رومانيّ واحد في المدينة المنتصرة على العالم، وبدا أن الحياة قد توقّفت فيها تمامًا، حتى إنّهُ كان يسمعُ للريح -عندما تهبّ ليلًا في أزقتها المقفرة- أنين مكتوم يشبه أنين رجل جريح يعاين دماءهُ وهي تُسحب من جسده حتى القطرة الأخيرة.

***

في تمام الليلة الثالثة عشر من نهب روما، عند الضفة اليسرى من نهر التيبر[27]، في ذلك الموضع الذي ينكمشُ فيه النهر الأصفر متكاسلًا مثل ثعبان متخمٍ، اجتمع أفراد الجالية اليهوديّة داخل منزل موسى

أبثاليون، كما هي عادتهم في كلّ ليلة. لم يكن موسى وجهًا من وجوه المجتمع اليهودي البارزة أو رجلًا ضليعًا في علوم الشريعة، بل رجلًا حرفيًّا خشن المظهر، يمتلك ورشة ذات أرضية ترابية ملحقة بمنزله، كانت أكثر اتساعًا من منازل اليهود الضيّقة الحقيرة، وذلك ما يفسّر إصرارهم على الاجتماع عنده.

كانوا يواظبون على القدوم إلى ورشة موسى كلّ ليلة، لمدّة ثلاثة عشر يومًا، فيخرجون شالات صلاة البيض، ويشرعون في الصلاة بإصرار أصمّ يكاد يكون روتينيًّا في ظلال مصاريع النوافذ المغلقة، بين البكرات المعلقة والأقمشة المصبوغة والأحواض العميقة. كانوا يثابرون على فعل ذلك بوجومٍ وخوفٍ رغم أنّ الوندال لم يتعرّضوا إلى حيّ اليهود، إلّا في مناسبتين أو ثلاث، شهدت توغّل كتائب الجنود، يتقدمهما قُواد المئة والكتبة، إلى داخل الحيّ الضيّق القذر الذي استقرت الرطوبة بين

(27) نهر التيبر) بالإيطالية (Tevere :هو ثاني أطول نهر في إيطاليا.

حجارة بيوته، بسبب الفيضانات المتكرّرة، حتّى رشح منها ما يشبه الدموع الباردة. وفي كلّ مرّة، كان الناهبون يكتفون بإلقاء نظرات ازدراء على الحيّ البائس، حيث لا يوجد ما يمكن نهبه، لا أروقة لامعة مبلّطة بالرخام ولا صالات استقبال ذات زخرفة براقة، ولا تماثيل أو مزهريات برونزية.

وعلى ذلك النحو، كان الوندال يتوغلون في حيّ اليهود في كلّ مرّة ويغادرونه دونما اكتراثٍ، ومن ثمّة بات تعرّض اليهود إلى النهب أو إخضاعهم للأتاوة، أمرًا بعيد الاحتمال. ومع ذلك، كانت قلوبهم مثقلة يعتصرها إحساس بوقوع خطرٍ وشيك. كانوا يعرفون في قرارة أنفسهم، أنّ ما من مصيبةٍ تحلُّ بمدينةٍ أو بلدٍ اتخذوهُ مستقرًّا لهم إلاّ ودفعوا ثمنها هم أيضًا وأن الشعوب التي يعيشون بينها قد تنساهم في أزمنة الرخاء فلا تلتفت إليهم، إذ ينصرفُ الأمراءُ إلى ابتناء القصورُ الجميلة والإقبال على حياة الترف، بينما تقبلُ العوّامُ على رياضات الصيد والألعاب، لكن ما إن تحلّ المصائب حتّى يسارع الكلّ إلى تحميلهم المسؤوليّة، والويل كلّ الويل لهم إن انتصر عدوّ ما، أو نهبت مدينة أو تفشّى طاعونٌ فيها أو نزلت بها رزّية تسببت في معاناة أهلها! كانوا يعرفون أنّ مصائب العالم ستقعُ على رؤوسهم حتمًا وأنّ عليهم تقبّل مصيرهم بلا تذمّرٍ، إذ لطالما كانوا قليلي العدد، ضعفاء وعاجزين، في أيّ بلدٍ سكنوا إليه. نعم، ذلك ما كانوا يعرفونه ويتوارثونه جيلًا بعد جيل، ولذلك كلّه كانوا يجدونَ في الصلاة ما يعزي قلوبهم ويواسيها.

ولقد ثابر يهود روما على الصلاة كلّ ليلة في ورشة موسى حتّى ساعاتٍ متقدّمة من الليل، لأنهم كانوا يشهدون أوقاتًا عصيبة تنذر المنذرة بالخطر، على الأقلّ، كان ذلك ما تبينوه من أعمال النهب التي قام بها الوندال. فما الذي بوسع الرّجل الصالح

أن يفعل أكثر من إدارة ظهره لعالمٍ مظلمٍ، قاسٍ، تعود الكلمة العليا فيه للجبروت، والتوجّه إلى الربّ[28] بالصلاة؟ كان يهود روما يعرفون أنّ الوندال ليسوا أوّل من نهب روما، فاستهداف المدينة بات أمرًا دارجًا خلال العقود الأخيرة، بل وتعودوا على رؤية البرابرة الجشعين، شقرًا كانوا أم سمرًا، وهم يزحفون على المدينة من كلّ حدب وصوب، تارةً من الجنوب، وتارةً من الشرق والغرب، فما إن ينتهي فريقٌ منهم من النهب والسلب حتى يترك مكانه للآخرين.

كانوا يعرفونَ أنّ الآثمين يتحاربون بين بعضهم، في كلّ مكان من العالم، مانعين على الأتقياء حقّهم في العيش بسلامٍ. وها هم قد التفتوا إلى روما بعد أن استباحوا أورشليم وبابل والإسكندرية.

وبالمثل، كانوا يعرفون أنّ ما من مكانٍ يختارهُ التقيّ ليرتاح إلا وسادت الاضطراباتُ فيه، وأنّ ما من بلدٍ سعى إليه بحثًا عن الطمأنينةِ، إلاّ وألفى الحربَ في انتظاره، دون أن تكون له القدرة على تجنّب مصيرهِ. ولكلّ ذلك، ما على التقيّ الصالح سوى أن يُقبل على الصلاة، ففيها وحدها يجدُ الحماية والطمأنينة والعزاء في ذلك العالم المضطرب. إنّ الصلاةَ وسيلة مباركة حقّا، فهي تُذهبُ الخوف بما تمنحهُ من وعودٍ بالخلاص، وتهدّئ من روع الروح الفزعة بما تتضمنّه من تراتيل، وترفعُ إلى الربّ حزنَ القلوبِ بأجنحتها المنشدة، ولكلّ ذلك، من المهمّ أن يصلّي المرء في أوقات الشدّة، وسيكون من الأفضل لو فعل ذلك وسط جماعة، لأنّ الآلام المشتركة تخفتُ بالتضامن ولأنّ الخير يحسن في عين الرّب عندما يقومُ به النّاسُ كرجلٍ واحدٍ.

(28) استخدمنا كلمة الرب هنا وفي باقي النص، بدل كلمة الله أو الإله، التزامًا باستعمالات المفردة في النصوص اليهودية المقدّسة.

بالصلاة؟ كان يهود روما يعرفون أنّ الوندال ليسوا أوّل من نهب روما، فاستهداف المدينة بات أمرًا دارجًا خلال العقود الأخيرة، بل وتعودوا على رؤية البرابرة الجشعين، شقرًا كانوا أم سمرًا، وهم يزحفون على المدينة من كلّ حدب وصوب، تارةً من الجنوب، وتارةً من الشرق والغرب، فما إن ينتهي فريقٌ منهم من النهب والسلب حتى يترك مكانه للآخرين.

كانوا يعرفونَ أنّ الآثمين يتحاربون بين بعضهم، في كلّ مكان من العالم، مانعين على الأتقياء حقّهم في العيش بسلامٍ. وها هم قد التفتوا إلى روما بعد أن استباحوا أورشليم وبابل والإسكندرية.

ولأجل ذلك، واظب يهود روما على الصلاة جماعة، لا شيء يرافقهم إلاّ ما ينفذُ من بين لحيّهم من تمتمات خاشعة، خفيفة، ثابتة، مثل رجرجة مياه نهر «التيبر» تحت نوافذ الورشة، كلّما عنّ لموجاته الرخوة أن تداعبَ ضفافه، فتضرب بعناد، وفي غير عنف، أخشاب المغاسل.

لا أحد منهم كان ينظرُ إلى جاره. كانوا مستغرقين بكليتهم في ترتيل المزامير نفسها، وهي مزامير سبق لهم أن رتّلوها مئات بل آلاف المرّات، كحال آبائهم وأجدادهم من قبلهم، وهم يحرّكون أكتافهم المسنّة المخلّعة بالإيقاع الرتيب ذاته. كانت شفاههم تكادُ لا تعقلُ ما يخرجُ منها، حالها في ذلك حال حواسهم المتبلّدة، حتى إنّ الأمر برمّته بدا مثل مناحة جماعيّة هادئة خارجة من حلمٍ مشوّشٍ.

فجأةً، انتفضوا في أماكنهم وانتصبت ظهورهم في وقت واحدٍ، حينَ تناهى إلى أسمعاهم صوتُ سقّاطةُ الباب وهي تُقرعُ بدوّي مفزعٍ. في ذلك الزمن، كان اليهود

المغتربون يبدونَ خوفًا غريزيًّا من كلّ ما هو مفاجئ. وهو ما شعروا به في تلك اللحظة تحديدًا، ففي نهاية الأمر، ما الذي يمكنُ توقّعهُ من سقّاطةِ بابٍ تقرعُ في ذلك الوقت من الليل؟

توقفت تمتماتهم بغتةً كأنّما قُصّتْ بمقصٍّ، وأفسحت المجالَ، وقد عمّ الصمتُ، لأصواتِ رجرجة المياهِ الرتيبةِ الثابتة. لبثوا على ذلك الحال برهة من الزمن، راحوا يصيخون فيها بأسماعهم وقد جفّت حلوقهم من الخوف. وعندما قُرعت سقّاطة الباب ثانيةً، شعروا كأنّ يدًا متعجّلة تكادُ تقتلع الباب من مكانه، فنهض موسى أبثاليون حينئذ من مجلسه وهو يغمغم كأنّهُ يحدّث نفسه: «حسناً، سأذهب!»، ثمّ خرج بهدوء. ومع خروجه، تراقص لهب الشمعة الملتصقة بالطاولة، بفعل التيار الهوائي، وطفق يهتزّ بعنفٍ، كحال قلوبِ أولئك الرجال الذين لم يهدأ روعهم إلاّ بعد أن تعرّفوا على القادم الجديد.

كان الطارقُ هو هيراكونوس بن هلال، أمين الخزينة الإمبراطورية، فخر المجتمع اليهودي، واليهودي الوحيد الذي كان مسموحًا له دخول القصر المشيّد على الجانب الآخر من نهر التيبر[29]، في التراستفيرا، والإقامةِ فيه، فضلًا عن ارتداء الملابس الأنيقة الملوّنة، وذلك بتوصية خاصة من بطانة الإمبراطور. غير أنهم تفاجأوا حين ألفوا وجهه متسخًا ومعطفه ممزّقًا، فأحاطوا به جميعا وطفقوا يسألونهُ بلا هوادة عمّا يحملهُ من أخبارٍ، رغم أنّهم خمنوا، وقد عاينوا اضطرابه الواضح، أنّه يحملُ إليهم مصيبةً.

(29) استعمل المؤلف مفردة الـ Trastevere التي تترجم أيضا إلى «ما بعد نهر التيبر» أو «الجانب الآخر من التيبر»، ويقصد بها الحيّ المخصص لعلية القوم والأثرياء وكبار الشخصيات.

التقط هيراكونوس نفسًا عميقًا، وقد بدا جليّا أن الكلمات احتبست داخل حلقه رافضةً الخروج، قبل أن يقول متأوّهًا:

-لقد حدث ما كنت أخشاه. لقد أخذوه، لقد عثروا عليه!

فصاحوا جميعًا بصوتٍ عالٍ:

-عثروا على من؟ عثروا على ماذا؟

-الشمعدان! المينوراه[30]! فمع وصول البرابرة إلى روما، سارعتُ إلى إخفائه داخل المطبخ، تحت أواني الطعام، متعمّدًا ترك باقي ذخائرنا المقدّسة، وأعني مائدة خبز الوجه والأبواق الفضية وعصا هارون والمباخر، داخل الخزينة الإمبراطورية ولأنّ معظم خدم القصر كانوا يعرفون مكانها، صعب علي أن أخفيها كلّها. ومع ذلك، هفت نفسي إلى إنقاذِ شيء واحدٍ، من بين كلّ مقدّسات هيكلنا الطاهرة، ألا وهو شمعدان موسى... مشكاة خيمة الرب... المينوراه. كان البرابرة قد نهبوا كلّ شيء فعلًا، وأفرغوا كلّ محتويات الخزينة قبل أن يتوقّفوا عن البحث، وهو ما أشعرني بالاطمئنان إلى فكرة أننا سنحتفظُ بواحدة من ذخائرنا المقدّسة على الأقلّ، لكن عبدًا - لتجفّ روحه! – رآني وأنا أخفي الشمعدان، فوشى بي إلى اللّصوص، طمعًا في شراء حرّيته، وأشار عليهم بالمكان الذي أخفيتهُ فيه، فقاموا بإخراجه. وهاهم قد صاروا يمتلكونَ كلّ ما كانَ داخل هيكل سليمان، «قدس الأقداس»، من ذخائر، أي

(30) المينوراه أو الشمعدان السباعي، هو شمعدان ذهبي، كان موضوعًا في خيمة الاجتماع وفيما بعد داخل الهيكل، وكان الكهنة يشعلون فيه الشموع كل ليلة.

المذبح والمزهريات وألواح العهد والمينوراه! واليوم، بل في هذه اللّيلة بالذات، سيُحملُ الوندال الشّمعدان إلى سفنهم.

ظلّوا واجمين لبرهةٍ من الزمن، قبل أن تندفع صرخاتهم المتنافرة على حين غرّة من بين شفاههم الشّاحبة:

-الشمعدان...! مرة أخرى...! المينوراه...! شعلة الرب...! مصيبة ...مصيبة...! سراج المذبح الربّاني...! المينوراه!

ساد الاضطرابُ بينهم فطفقوا يصطدمون ببعضهم، ذاهلين عمّا حولهم كأنّهم جماعة من سكارى، وراحوا يضربون على صدورهم بقبضاتهم ويدورون على أنفسهم ممسكين بخصورهم، وهم ينتحبون، كأنّهم يعانون من آلام جسديّة فظيعة. وفي لمح البصر، فقد أولئك العجائز وقارهم، وضجّت أصواتهم بالصراخ، وكأنهم أصيبوا بعمى مباغتٍ.

! فمع وصول البرابرة إلى روما، سارعتُ إلى إخفائه داخل المطبخ، تحت أواني الطعام، متعمّدًا ترك باقي ذخائرنا المقدّسة، وأعني مائدة خبز الوجه والأبواق الفضية وعصا هارون والمباخر، داخل الخزينة الإمبراطورية ولأنّ معظم خدم القصر كانوا يعرفون مكانها، صعب علي أن أخفيها كلّها. ومع ذلك، هفت نفسي إلى إنقاذِ شيء واحدٍ، من بين كلّ مقدّسات هيكلنا الطاهرة، ألا وهو شمعدان موسى... مشكاة خيمة الرب... المينوراه. كان البرابرة قد نهبوا كلّ شيء فعلًا، وأفرغوا كلّ محتويات الخزينة قبل أن يتوقّفوا عن البحث، وهو ما أشعرني بالاطمئنان إلى فكرة أننا سنحتفظُ بواحدة من ذخائرنا المقدّسة على الأقلّ، لكن عبدًا - لتجفّ روحه! -

رآني وأنا أخفي الشمعدان، فوشى بي إلى اللّصوص، طمعًا في شراء حرّيته، وأشار عليهم بالمكان الذي أخفيتهُ فيه، فقاموا بإخراجه. وهاهم قد صاروا يمتلكونَ كلّ ما كانَ داخل هيكل سليمان، «قدس الأقداس»، من ذخائر، أي المذبح والمزهريات وألواح العهد والمينوراه! واليوم، بل في هذه اللّيلة بالذات، سيُحملُ الوندال الشّمعدان إلى سفنهم.

ظلّوا واجمين لبرهةٍ من الزمن، قبل أن تندفع صرخاتهم المتنافرة على حين غرّة من بين شفاههم الشّاحبة:

«اصمتوا!»

صرخَ فيهم صوتٌ قاهر على نحو مباغت. وفي الحال، صمتَ الجميع. كان من أمرهم بالسكوتُ هو رئيس الجالية اليهودية، كبيرهم والأكثر حكمةٍ من بينهم وأحد أحبار الكتاب المقدّس، الحاخام أليعاز، ذاك الذين اعتادوا أن يطلقوا عليه اسم «كاب في ناكي»، أي «الطاهر الهادئ». كان أليعازر في حوالي الثمانين من عمره، تحيطُ وجهه لحية في بياض الثلج. وعلى الرغم من أنّ الهموم حفرت على جبينه أخاديدَ عميقة، إلاّ أن عينيه حافظتا، من تحت حواجبه الكثّة، على هدوئهما وصفائهما فبدتا كأنّهما نجمتان.

رفع الحاخام أليعاز يده، وقد كانت صغيرة، شاحبة، كثيرة العروق مثل كلّ الرقوق التي خطتها أناملهُ طوال حياته، وطفق يلوّحُ بها في الفضاء بحركة أفقيّة، كأنه يسعى إلى إبعاد ما أحدثوهُ من ضجيجٍ عن ناظريه ويخلي المكان إلى صوت العقل، حاله في ذلك حال من يريد إبعاد دخان مؤذٍ عن عينيه.

«اصمتوا!»، كرّر ثانية، وأضاف: «الأطفالُ وحدهم هم من يضجّون بالصّراخِ عند الخطر، أما الرجال فيفكرون. اجلسوا وتشاوروا فيما بينكم، فالعقل لا يعثرُ على صفائه إلاّ حين يرتاحُ الجسد».

فسارعوا حينئذٍ إلى الجلوسُ متوزعين على الأرائك والمقاعد، دون أن يزايلهم اضطرابهم.

وبعد برهةٍ من الصمت، قال الحاخام أليعاز في هدوء، دون أن ينظر إليهم، حتى بدا كأنّهُ يحدّث نفسه:»إنّها مصيبة! مصيبة كبرى! لقد أخذوا منّا كلّ ذخائرنا المقدّسة منذ زمن طويل، فلم يرها أحد منّا بعد ذلك قطّ، باستثناء هيراكونوس بن هلال، أمين الخزانة. ومع ذلك، كنّا نعرف أنّها مخبّأة هناك، بالقربِ منَّا، بعد أن استولى عليها تيتوس[31]. لطالما تحمّلنا وطأة المنفى لأننا كنّا نعرفُ أنّ مقدساتنا التي ارتحلت عبر القرون، تلك التي نهبت من بابل وأورشليم قبل أن تعود في كلّ مرّة إلى مهدها، موجودة معنا داخل المدينة نفسها، حتى وإن بقيت سجينة. صحيح أنّنا حُرمنا من وضع الخبز فوق المذبح، لكن واظبنا على تخيّل ذلك ونحنُ نكسرُ الخبز. صحيحٌ أيضا أننا مُنعنا من إشعال شموع الشمعدان، لكنّ أفكارنا لم ترتحل إليه كلّما أشعلنا نورًا، هو المحكوم بالبقاء في الظلمة والعزلة داخل بيت غريب عنه. نحن نعلم يقينًا أنّ مقدساتنا لم تعد في حوزتنا، ومع ذلك، نعرفُ أنّها موجودةٌ في مكانٍ آمنٍ ولا خوفَ عليها. وها نحن الآن قد صرنا نعلمُ أنّ الشمعدان المقدّس سيرحلُ مرّة أخرى، لا إلى موطنه الأصلي كما كنا نأمل، بل إلى مكانٍ بعيد، لا أحد يعرف عنه شيئًا. لكلّ

(31) الإمبراطور تيتوس (30 ديسمبر 39 – 13 سبتمبر 81)، هو الإمبراطور الروماني العاشر، وقد حكم لفترة قصيرة (24 يونيو 79 – 13 سبتمبر 81).

ذلك، يجب علينا ألاّ ننتحب، فالبكاء لا يمنح حلولًا. دعونا نتشاورُ فيما يجب علينا القيامُ به».

مالت جباه الرجال نحو العجوز ولاذوا بالصمت تمامًا. في غضون ذلك، راحت يده عن العبث بلحيته، صعودًا ونزولًا، قبل أن يكسر صمته فجأة ويقول كأنّهُ يحادث نفسه:

«لقد صُنع الشمعدانُ من الذهب النقيّ. والحقّ أنّي لطالما تساءلتُ لم سعى الربُّ إلى أن تكونَ هديّتنا إليه باهظة على هذا النحو؟ لماذا طلب الربّ من موسى أن يكون الشمعدان ثقيلاً جدّا، تخرجُ منه سبع مواسير، وتزيّنه البراعم والزهور المنحوتة؟ حتّى إنّي كنتُ أتساءلُ أحيانًا إن كان ما طلبهُ الرّبُ لا يشكّل خطرًا على الشمعدان نفسه، فكما تعلمون، لطالما رافق الشرُّ الثروةَ، إذ أنّ لا شيء يجلبُ اللصوص كالكنوز. غير أنّي كنتُ أتبيّنُ في كلّ مرّة مدى رعونة أفكارنا وتساؤلاتنا، لأنّ في أوامر الربّ الأزليّ إلينا ثمّة حكمة لا تدركها علومنا أو عقولنا. وها نحنُ الآن قد فهمنا أنّ القرون ما كانت لتحفظ مقدّساتنا لولا قيمتها الثمينة. لو كانت قد صنعت من معادن رخيصة، لكان الناهبون قد قاموا بكسرها بلا ذرّة ندمٍ واحدة وصنعوا منها السيوف والقيود. أمّا وقد احتفظوا بها، فإنّ ذلك يقيم الدليلَ على أنّهم يعرفون قيمتها، دونًا عن قداستها، وبسبب نفاستها تحديدًا، لم يحدث قطّ أن تعرّضت للتلف، حتّى وهي تنتقلُ من يد سارقٍ إلى آخر، بل لم يحدث قطّ أن تجرّأ أحد على تدميرها، وهذا ما يفسّر عودتها سالمةً إلى الربّ بعد كلّ ترحالٍ.

لكلّ ذلك، دعونا نفكّر قليلًا. هل يلقي البرابرة بالًا إلى ما في مقدّساتنا من حرمةٍ حقّا؟ أنتم تعلمون أنهم لا يرون في الشمعدان سوى أمرًا واحدًا وهو الذهب الذي

صُنع منه. فإذا ما حاولنا أن نحرّك أطماعهم، ونعرض عليهم ضعفي أو حتّى ثلاثة أضعاف وزنه ذهبًا، فإننا قد ننجح في استرجاعه. أمّا إذا عجزنا نحن يهود روما على المواجهة، طالما أنّ كل ما نحوزه من قوّة يكمن فيما نقدّمهُ من تضحياتٍ، فسنطلبُ من كلّ إخوتنا في جميع أنحاء العالم أن يساعدونا على تخليصه من بين أيديهم. وإن تطلّب الأمرُ أكثر من ذلك، سنقوم بمضاعفة تقدماتنا إلى الهيكل ونَهبُ ما تلبسهُ أجسادنا، وما نضعهُ من خواتم في أصابعنا. يجب أن نستردّ الشمعدان المقدّس، حتى لو اضطررنا إلى دفع سبعة أضعاف وزنه ذهبًا».

عندما بلغ تلك النقطة من حديثهِ، قاطعهُ زفير حارّ صادر عن هيراكونوس بن هلال الذي ما لبث أن رفع نحوه عينين محزونتين قبل أن يقول بنبرة هادئة:

-لا جدوى من ذلك. فلقد حاولت افتداءه فعلًا. كان ذلك أوّل ما تبادر إلى ذهني، فناشدت أمناء خزينتهم وكتبتهم، لكنهم تلقوا توسّلاتي بوقاحة ووحشيّة، غير أنّي لم أيأس، وذهبتُ إلى الملك جنسريك نفسه وقدّمت له فدية كبيرة لكنّهُ راح يستمع لي ساخرًا وهو يضرب على الأرض بقدمه. ففقدتُ حينئذٍ عقلي وأشدتُ بمزايا الشمعدان أمامه. قلتُ له إنّه ينتمي إلى هيكل سليمان، وأن تيتوس استقدمه من أورشليم، وقد رأى فيه أعظم تتويج لانتصاره. حالما أخبرتهُ بذلك، فهم البربريّ قيمةَ ما وضع يده عليه، فأطلق ضحكةً قاسية وقال لي: « لا حاجة لي في ذهبك. لقد جمعتُ من الغنائم ما يجعلني أفرشُ إسطبلاتي بالذهب، وأصنعُ منه حدوات لجيادي. إذا كان الشمعدانُ فعْلا هو شمعدان هيكل سليمان، كما تقول، فسأحتفظُ به! وإذا كان قد سبق تيتوس إلى روما تخليدًا لانتصاره الأخير، كما تقول، فسأرحلُ به أنا أيضًا احتفالًا بانتصاري على هذه المدينة. وإذا كان هذا الشمعدان في خدمة

ربّك، كما تقول، فإنّه سيصبح الآن في خدمة الربّ الحقيقي! هيّا اغرب عن وجهي...»، ثمّ قام بطردي.

-كان عليك أن تبقى.

-وهل تعتقد أني لم أفعل؟ لقد ركعتُ أمامه وقبّلت ركبتيه، ولكن قلبه كان أكثر قسوة من سيفه. لقد دفعني بعيدًا بقدمه كأنّي حصاة، قبل أن يتناوب عبيده على ضربي وإلقائي خارجًا. إنها لمعجزة أني بقيتُ حيًّا!

في تلك اللحظة، أدرك الجميعُ سرّ تمزّق ملابس هيراكونوس بن هلال، وعاينوا وجود كدمة دامية فوق صدغه. ومع ذلك، ظلوا جلوسًا في أماكنهم عاجزين عن التفوّه بكلمةٍ واحدة. فجأة، تناهى إلى أسماعهم أصوات صرير عجلات العربات، وقد كانت تعبرُ الطريق باستمرار، وما كان يتبادله الوندالُ بين طرفَي المدينة من نفيرٍ غريبٍ، قبل أنّ يتوقّف كلّ ذلك بغتة ويسود الصمت. فقفزت حينئذٍ إلى رؤوسهم فكرة واحدة: لقد انتهى نهبُ المدينة، وسيفقدُ الشمعدان إلى الأبد!

فجأة، رفع الحاخام عينيه المجهدتين سائلًا هيراكونوس:

-هل قلت لي إنهم سيحملونه إلى موطنهم هذه الليلة؟

-نعم، سيحملونهُ هذه الليلة على عربة ستجتازُ شارع «بورتنسيس» حتّى يبلغوا سفنهم. وأصدقك القول، لا ريب أنّه الآن في طريقهِ إلى سفنهم، بينما نتحدث، لأنّ أصوات النفير التي سمعناها قبل قليلٍ هي أصوات تجميع الجنود، وهذا يعني أنّهم سيبحرونَ به غدًا.

أمال الحاخام أليعازر رأسه قليلًا على الطاولة، كأنّ النوم قد غشيهُ، حتى إنه بدا مذهولًا تمامًا وغير منتبهٍ إلى النظرات القلقة المصوّبة نحوه. فجأة، رفع جبينه وقال بهدوء: «قلت لي هذه الليلة، أليس كذلك؟ حسنًا، علينا إذن أن نرافقه».

فوجئوا جميعا بقوله، لكنّ العجوز كرّرَ في لهجةٍ هادئة، لا تخلو من حزم:» نعم، سنرافقه! هذا واجبنا. تذكروا جيدًا وصايَا الشريعة: عندما كان تابوت العهد يرتحلُ من مكان إلى آخر، كنّا نتبعه، حتّى إنّه لم يكن مسموحًا لنا بأن نرتاح إلاّ متى استقرّ في مكانٍ بعينه. ولكلّ ذلك، علينا أن نتبع ذخائرنا المقدّسة في ارتحالها.

-ولكن كيف سنركب البحر، ونحنُ لا نمتلك سفينة؟

-حسنًا، نحنُ سنرافقُ الشمعدانَ إلى الميناء. فالأمر كلّهُ موكولٌ بهذه الليلة!

في تلك اللحظة، قام هيراكونوس من مجلسه وقال: «لطالما كانت الحكمة تخرجُ من فم الحاخام أليعازر. نعم، علينا أن نرافقه. هذا جزء من رحلتنا الأبدية. وكما كان الأمرُ مع تابوت العهد، سيكونُ على الشعب، بل على كلّ أبناء الجالية اليهودية، مرافقة الشمعدان في رحلته.

في تلك اللحظة، ارتفع صوت خجول من إحدى زوايا الغرفة. كان صوتَ سيمتشي، نجّار المنحوتات المقلّدة، الذي قال متأوّهًا:» ولكن، ماذا لو أسرونا؟ لقد أخذوا معهم المئات كعبيدٍ. ولا ريب عندي أنّهم سيضربوننا ويقتلوننا ويبيعون أطفالنا، وهذا يعني أننا لن نتقدّم خطوة واحدة فيما اعتزمنا على فعله».

«اصمت! «

ارتفعت أصواتهم جميعًا ناهرةً إيّاه. وقال له فريق منهم: «عليك أن تروّض خوفك. هب أنهم أسرونا أو قتلونا، فذلك ليس مهمًا. المهم هو أن نفتدي المينوراه حتى لو بذلنا أرواحنا مقابل ذلك. يجب أن نرافق الشمعدان. يجب أن نفعل ذلك».

«أجل، أجل»، كذلك صرخوا بصوتٍ واحدٍ، لكنّ الحاخام أليعاز أسكتهم بإشارة من يده.

وكعادته كلّما أراد أن يفكّرَ في أمرٍ ما، أطرق برأسه وأغمض عينيه. وبعد برهة من الصمت، قال حاسمًا الجدل:

-سيمتشي على حق. عليكم أن تعذروا جبنهُ وضعفه. أجل، إنّه على حقّ. ليس مسموحًا لنا أن نخاطر بحيواتنا، فنخرج في هذا الليل مع وجود أولئك اللصوص. ليس ثمّة ما هو أكثر قداسة من الحياة، حتى إن الربّ حرّم تعريضها للخطر عبثًا. لقد رأى سيمتشي ما لم نره كلّنا: بوسع اللصوص أن يأسروا شبابنا ويتخذوهم عبيدًا، ولذا لن يخرج الشبابُ أو الأطفالُ هذه الليلة. أما بالنسبة إلينا نحنُ الشيوخُ، فالأمر مختلف. لقد هرمنا، والرّجل الهرمُ هو عبء على غيره، وأحيانًا على نفسه. صحيح أننا عاجزون عن الإمساك بالمجاذيف أو الإبحار على متن القوارب، وصحيح أننا نكادُ لا نقدرُ على حفر قبورنا بأيدينا، حتّى إنّي أتخيّلُ الموتَ يشفق علينا حين تأتي ساعتنا، لكنّ مهمّةَ مرافقة الشمعدان متروكةٌ لنا. وعليه، فليتقدّم كلّ من بلغ السبعين من العمر وليتجمّعوا استعدادًا للرّحيل.

وما إن قال ذلك حتّى تقدّم أصحاب اللحيّ الرمادّية. كانوا عشرة أوّل الأمر وعندما انضمّ إليهم الحاخام أليعازر، الطاهر الهادئ، صاروا أحد عشر شيخًا بدوا

كأنّهم آخر الناجين من حقبةٍ ولّت، حقبة جليلة خطرة، وهو ما أحيا في أذهان الشباب والكهولِ ذكرى بعيدةً عن أسباط بني إسرائيل.

تركهم الحاخام أليعازر وانضمّ إلى البقيّة متوجّها إليهم بالقول:

-نحن الشيوخ سنرحل. لا نريدُكم أن تقلقوا بخصوص ما يمكن أن يحدث لنا. ومع ذلك، يجب أن يرافقنا صبيّ حدث لكي يقدّم شهادته فيما بعد إلى الأجيال القادمة والأجيال التي ستليها. نحنُ سنموتُ قريبًا، ومصابيحنا شارفت على الانطفاء وعمّا قليلٍ سيصيب الخرسُ أفواهنا. ولذا يتعيّنُ أن يرافقنا من سيرى شعلة مائدة الربّ الأزليّ بعينيه ويعيشُ أكثر منّا لسنوات طويلة قادمة، لكي ينتقلَ اليقينُ في عدم ضياع الشمعدان من سبط إلى سبط ومن عصرٍ إلى عصرٍ، ولكي يعلم من يأتي بعدنا أنّ المينوراه ستواصل رحلة تيهها الأبدية. صحيح أن الغلام لن يقدر على إدراك معاني الأشياء، لكنه سيرافقنا لكي ينقل شهادته بعدنا.

خيّم الصمتُ على الجميع، وراح كلّ واحد منهم يفكّرُ مرعوبًا في طفله، ويتخيّلهُ خارجًا، في ذلك الليل، ليواجه الخطر. وما لبث المعلّم الصبّاغ، أبثاليون، أن نهض من مجلسه وقال:

-سأذهب لإحضار حفيدي بنيامين. إنّه يبلغ من العمر سبع سنواتٍ كعدد مواسير الشمعدان، وهو ما أراه مصادفةً سعيدة. في غضون ذلك، عليكم أن تتجهّزوا للرّحيل. كُلوا ما تجدونه في بيتي ريثما أصعدُ لإحضار الطفل.

تحلّق الكبارُ حول المائدة المستديرة، وقام الشّبّان على خدمتهم فقدموا لهم النبيذ والأطعمة. وقبل كسر الخبز، دخل الحاخامُ في الصلاة، وهي صلاةٌ كان القدماء

يتلونها ثلاث مرّات في اليوم، على مرّ العصور، وطفق الشيوخ يكررون وراءه، بأصواتهم الضعيفة المتكسّرة، تلك الآية التي أثارت فيهم حنينًا إلى زمنٍ مضى: «إله الطيبة، وافق، في رحمتك، على استعادة مجدك على الجبل المقدّس وعلى خدمة المحرقة في أورشليم».

عندما فرغ الشيوخ من صلاتهم، طفقوا يتجهّزون، بهدوء وتأنٍّ، للرّحيل. لقد بدا الأمر كأنهم بصدد تأدية طقس ديني، إذ عمدوا إلى أكفانهم فوضعوها مع شالات الصالات وصناديق التيفيلين[32] داخل زوادات أحكموا غلقها، بينما قام الشبان بجلب الفاكهة والخبز لهم تحسّبًا للرحلة، ولم ينسوا مدّهم بالعصيّ الصلبة لمساعدتهم في مسيرتهم. بعد ذلك، أخذ كلّ شيخ رقًّا وكتب عليه وصيّته، وأشهد على ذلك البقيّة.

في غضون ذلك، كان المعلّم الصباغ، أبثاليون، قد صعدَ السلم الخشبي. ورغم أنّه خلع حذاءه قبل ارتقاء السلّم، إلا أنّ درجاته المفككة أخذت تطلقُ صريرًا مزعجًا، بسبب ضخامة بنيته وثقلها. وحالما بلغ الغرفة، حيث تنام كلّ من زوجته وزوجة ابنه وبناته وأحفاده متلاصقين، بسبب ما كان يعانيه من ضنكٍ وفقر، فتحَ الباب بحذرٍ شديدٍ. كانت الغرفة مظلمة إلا من شعاعٍ شاحب أزرق مدخّن كان القمر يرسلهُ من خلال ثقبٍ في مصراع النافذة المغلقة. راح يتحرّك ببطء على أطراف أصابعه، لكنه ما لبث أن اكتشف أنّ أعين زوجته وكنّته كانت مفتوحة على اتساعها، وتصوّبُ نحوه نظرات مرعوبةٍ من مرقدهما.

(32) التيفيلين صندوق مصنوع من جلد الكوشير يوضع على الجبهة ويلف الخيط على اليد اليسرى لأنها أقرب للقلب.

-ماذا هناك ؟

خاطبه صوتُ زوجته القلق، لكنّه لم يجبها بل راح يتحسّسُ طريقه نحو زاوية الغرفة اليسرى حيثُ كان حفيده بنيامين يرقد فوق سرير خشبي حقير. وفي حنّو بالغ، مالَ على الفراش. كان الصبيّ نائمًا، وقد جمع قبضتيه بتشنّج إلى صدره، كأنما أغضبه شيء ما في حلمه القاسي المضطرم. فمرّر أبثاليون يده بلطفٍ على شعره المتشابك لكي يوقظه. ومع أنّ الصبي لم يسترجع وعيه دفعة واحدة، إلاّ أن حواسه استشعرت على نحوٍ مبهم مداعبة جدّه، فاسترخت قبضتاهُ وانفرجت أساريرهُ عن ابتسامة ملائكية، ثمّ تمطّط في فراشه باستمتاع. في تلك اللحظة، شعر أبثاليون بانقباض في صدره، وأشفق من انتزاع ذلك الصبيّ البريء من نومه الهانئ، لكنه نفض أفكاره بسرعة، وأمسك الصبيّ وطفق يهزّهُ. فتح الطفلُ عينيه وأجال نظراته التائهة حوله. صحيح أنه كان يبلغُ من العمر سبع سنواتٍ فحسب، ولكنه كان صبيًا يهوديًا، ولدَ في المنفى، واعتاد الارتجاف من أيّ طارئٍ، كما ارتجف والده قبل قليلٍ حين قُرعت سقّاطة الباب، أو كما اعتاد الأحبارُ والقدماءُ أن يرتجفوا كلما اطلعوا على مرسوم جديد معلّق على جدران حيّهم، بمناسبة موت أحد الأباطرة وحلول آخر محلّه. كان كلّ ما هو طارئ يعدُّ خطرًا في عرف الحيّ اليهوديّ المقام في الجانب الآخر من نهر التيبر، حيث قضى بنيامين سنواته الأولى. صحيح أنه لم يكن قد بلغ بعد تلك السنّ التي يُسمحُ له فيها بالاطلاع على تعاليم الشريعةِ، لكنّهُ كان قد تعلّم فعلًا الخوف من كلّ شيءٍ في ذلك الحيّ بالذات.

حدج الصبيّ خيال جدّه بنظرة ثابتة، إلا أن الأخير سارع إلى وضع يده على فمه لكي يمنعه من الصراخ وما لبث أن هدأ روعهُ حالما تعرّف إلى أبثاليون الذي مال عليه ووشوش في أذنه قائلاً:

«ارتدِ ملابسك وحذاءك، وتعال! لا تصدر أي ضوضاء حتى لا يسمعنا أحد». نهض بنيامين على الفور، وقد حدس بأنّ في الأمر سرًّا. ولقد أشعره ذلك بالفخر، فلم يستفسر من جدّه، لا نظرًا ولا مشافهةً، وإنّما سارع إلى البحث عن ملابسه وصندله.

كانا قد اقتربا من باب الغرفة، عندما رفعَتْ أمّ الطفل رأسها عن الوسادة وسألت أبثاليون بصوتٍ دامع:

-إلى أين تأخذ الصبيّ؟

فنهرها قائلًا:

-اصمتي! لا يحقّ للنساء طرح الأسئلة!

وأغلق باب غرفة النوم وراءه، تاركًا المرأتين وراءه وقد جافاهما النومُ تمامًا، قبل أن يتناهى إلى سمعه، من خلف الجدار الخشبي الرقيق، صوتاهما، وقد اختلط فيهما الكلامُ بالعويل.

***

عندما عبر الأحد عشر عجوزًا باب المغسلة في اتجاه الطريق، كان كلّ الشارع قد عرف برحلتهم المحفوفة بالمخاطر، كأن الجدران سرّبت الخبر الغريب، فتعالت

التأوهات وأصوات والعويل من كلّ المنازل، غير أن ذلك لم يستوقف الشيوخ، ولم ينقلبوا على أعقابهم عائدين، بل واصلوا سيرهم بخطى هادئة واثقة.

في تلك اللحظة، كان الليل قد انتصفَ تقريبًا.

وأمام دهشتهم الشديدة، ألفوا أبواب المدينة مفتوحةً بلا حراسة، فلم يستوقفهم أحد أو يستجوبهم. ولقد كان الأمر مفهومًا بالتأكيد، فمن ناحية، كانت أصوات النفير التي أطلقت قبل ساعة قد أعلنت عن تجميعِ آخر جنود الوندال، ومن ناحية أخرى، لم يجازف الرومان المحبوسون بالخروج من منازلهم وتصديق فكرة أن المحنة انتهت. ولذلك كانت الطريق التي تقود إلى الميناء مقفرة تمامًا، فلم يصادفوا مخلوقًا أو عربة أو حتّى ظلاًّ، باستثناء الدعامات العسكرية التي كانت تلمعُ تحت ضوء القمر الدخانيّ. وعلى ذلك النحو، راح الحجّاجُ، وقد خلت طريقهم من المعوقات، يجتازون الأبواب المفتوحة تحت أستار الظلام.

هيراكونوس بن هلال قائلًا:

فجأة، خاطبهم

–نحن متأخرون عنهم فعلًا. لا ريب أنّ عربات اللصوص قد سبقتنا بشوطٍ كبير الآن، ومن الجائز أن تكون قد انطلقت قبل إطلاق نفير تجميع الجنود. هيّا، علينا أن نسرع.

وما كاد ينهي كلامه حتّى طفق الشيوخ يحثون أقدامهم حثًّا. كان أبثاليون الشيخ السبعيني يتقدمهم مستندًا على عصاه، وعلى يمينه في الصف الأول، الحاخام أليعازر، كبير الجماعة الثمانيني، وبينهما طفل السبع سنوات الذي كان يكردح بساقيه

الصغيرتين بكلّ ما أوتي من سرعة، وقد استبدّ به القلقُ والنّعاس، فيما انتظم بقيّة الشيوخ في صفوفٍ متقاربة، كلّ صفّ مكوّنٍ من ثلاثةٍ منهم، وساروا وراءهم، ممسكين زواداتهم باليد اليسرى ونبابيتهم باليمنى، ورؤوسهم مائلة إلى الأمام كأنّهم يشيّعون تابوتًا خياليًا.

كانت ليلةً من ليالي الرّيف الخانقة، ليلةً بلا نسمة هواء واحدة قادرة على تبديد ضباب المستنقعات السميك اللزج، وكان قد ألقى لحظتها بساطهُ على السّهل فأثقل الهواء برائحة الأرض العفنة. كان القمر الأخضر الشاحب يرسل نوره من السماء المنخفضة الخانقة، فشعر الشيوخ بأن هناك شؤمًا ما يحيط بتلك الرحلة الليلية، وسط كلّ تلك التلال الدائرية التي تقف بلا حراك على طول الطريق كأنها حيوانات نافقة، والمنازل المنهوبة التي بدت، بنوافذها المتهالكة، أشبه بحشدٍ من العميان بصدد التفرّج على ذلك الموكب الغريب. لم يكن الخطر قد أطلّ برأسه بعد، فالطريق كانت ما تزالُ مقفرة، مثل نهر متجمّد تحت ضباب يشعُّ منه وميض مائل إلى البياض، وما من شيء كان يدلّ على آثار اللصوص، باستثناء فيلا رومانية كانت تحترق على يسارهم، وكأنّها تشهد على ما خلّفهُ اللصوص من دمار خلال مرورهم. كان سقفها القرميديّ منهارًا بالفعل، وكانت سحب الدخان المتصاعدة من الداخل تصطبغُ بلونٍ يميلُ إلى الحمرة بسبب ما خلّفته النيرانُ من جمرٍ متوهّجٍ. وعندما عاينَ الشيوخُ ذلك المشهد، طافت فكرة وحيدة داخل رؤوسهم. لقد بدا لهم أنّ ما شاهدوه لم يكن يختلف البتّة عن عمود النّار الذي كان يتقدّمُ قدس الأقداس، يوم كان أسلافهم يسيرون وراء تابوت العهد، كحالهم هم في تلك الليلة وهم يسعون خلف أغلى ما يمتلكونه: المينوراه.

حاول الصبيّ مجاراة جده أبثاليون والحاخام أليعاز، فراح لاهث الأنفاس يكردح بساقيه لكيلا يتخلّف عنهما. كان صامتًا وهو يحاكي الآخرين، غير أنّ روحهُ شغلها خوف طفق يتعاظم باطّرادٍ، حتّى شعرَ بقلبه وهو يكاد يقفزُ ألمًا داخل ضلوعه مع كلّ خطوة يخطوها. كان خائفًا، خائفًا للغاية، لأنّه كان يجهلُ سبب قيام أولئك الشيوخ بانتزاعه من فراشه، أو المكان الذي يأخذونه إليه.

أضف إلى ذلك، لم يسبق للصبيّ من قبل أن رأى الريف أو السّماء الواسعة فوقه. لم يكن يعرف من الليل إلّا ما كان شارع اليهود يسمح له برؤيته. ففي ذلك الشارع، كان الليلُ عبارة عن مستطيل أسود اللون، في حجم قبضة اليد، يكادُ ألاّ يتيح للمرء سوى مشاهدة ثلاثة نجومٍ أو أربعة وسط تلك القطعة الصغيرة من السّماء، إن هو أطلّ عليها من منور سطح منزله الضيّق. وهو إلى ذلك، لم يكن بذلك الليل الذي يبعثُ في نفسه الخوف، إذ لطالما كان يضجُّ بالأصوات المألوفة. فإلى حدود السّاعة التي كان سكّان الحيّ يخلدون فيها إلى النوم، كان بوسعه أن يسمع صلوات الرجال وسعال المرضى وأصداء الخطوات في الشارع ومواء القطط وحشرجة أخشاب المواقد. وعندما يحين موعد النوم، كانت أمّه تنامُ على يمينه وأخته على يساره.

وعلى ذلك النحو، عاشَ سنوات طفولته محميًّا، محاطًا بالدفء والحياة، ولم يكن وحيدًا قطّ. أمّا هناك، في الخارج، فلقد كانت رحابة الليل تهدّدهُ وتشعره بأنّه أكثر ضآلة من ذي قبل تحت القبّة السماويّة المحجّبة الغائمة. ولو لم يكن تحت حماية أولئك الرّجال، لكان فكّر في البكاء أو الهرب من ذلك الشيء الهائل الذي يحيط به من كلّ جانب ويرهبهُ بصمته السّاحق. ولكن لحسن حظّ ذلك العصفور، كان هنالك مكانٌ لشيء آخر غير الخوف داخل قلبه ألا وهو ذلك الكبرياءُ النابضُ المتوقّدُ داخل قلبه.

والحقّ أنه كان يشعرُ في قرارة نفسه بالفخر لأنّ الشيوخ الذين كان الشبابُ يرتجفون في حضرتهم- حتّى إنّ أمه لم تكن تتجرّأ على رفع صوتها أمامهم-، أولئك الحكماء المبجّلون، اختاروه، هو الحدثُ، لكي يرافقهم دونًا عن البقيّة. صحيح أنه كان يجهلُ لماذا أو إلى أين يأخذونه، ولكنّه حدس، رغمَ سذاجة روحه، حدس أنّ أمرًا عظيمًا يقف وراء تلك المسيرة الليلية. ولذلك كلّهُ، آلى على نفسه أن يظهر جديرًا باختيارهم له، وهو ما يفسّرُ إصرارهُ على إجبار ساقيه الرقيقتين باستمرارٍ على قطع الطريق بخطوات كبيرة، والسيطرة على نبضات قلبه بشجاعة، كلّما خفقَ الأخيرُ بعنفٍ داخل صدره.

بيد أنّ الطريق كانت طويلة جدّا، والإرهاقُ طاله منذ فترةٍ طويلة، فضلًا عمّا كان يعاودهُ من نوباتِ هلعٍ، كلّما استطالت ظلال مرافقيه فجأة تحت ضوء القمر الدخانّي، أو اختفت سريعًا، أو كلّما تناهى إلى سمعهِ وقع أقدامهم المجلجل فوق الصخور المنبسطة. فجأة، رفرف شيء أسود قربَ جبينه. كان خفاشًا ما لبث أن طار متعرّجًا وفرّ تحت جنح الظلام، فأطلق بنيامين حينئذٍ صرخة وهو يتشبّث بيد جدّه قائلًا: «جدّي، جدّي، إلى أين نحن ذاهبون؟»

لم يلتف العجوز إليه وإنّما دمدم بخشونة وانزعاج:» اصمت وامشِ! لا تسأل شيئًا!». فخفض الصبيّ رأسه كأنّهُ تعرّض للعقاب في تلك اللحظة وشعر بالخجل من عجزه عن احتواء خوفه، قبل أن يتمتم باستياء: «ما كان عليّ أن أسأل».

لكنّ الحاخام أليعازر، الطاهر الهادئ، حدج أبثاليون بنظرة صارمة، وأجابه من فوق رأس الصبيّ المرتجف:

إنّ ما قلته كان بلا معنى على الإطلاق. كيف للصبيّ ألّا يعرف شيئًا؟ هل يملك لنفسه ألاّ يكون مذهولًا، هو من انتزعناه من سريره لنأخذه وسط الظلمات المجهولة؟ لماذا لا يحقّ له أن يطّلع على هدف رحلتنا؟ أليس هو من يشاركنا مصيرنا، بميراث الدمّ[33]؟ أليس هو من سيتحمّل أكثر منا، ولمدة طويلة قادمة، محنتنا التي لا تنتهي؟ سيأتي وقتٌ تنطفئ فيه عيوننا، وسيعيشُ هو بعدنا ليشهد أمام جيل آخر أنه آخر من رأى شمعدان مذبح الربّ الأزليّ في روما. فلماذا تريد أن تتركهُ غارقًا جهله، ونحنُ الذين أردناهُ أن يكون مطلّعًا على أطوار هذه الليلة ورسولنا إلى قومنا من بعدنا؟

لاذ أبثاليون بالصمت وقد تشوّش ذهنه، بينما مال الحاخام أليعاز على الطفل بودّ، وقال لهُ وهو يمسّد شعره مشجّعًا:

-اسأل يا بنيّ. اسأل بقدر ما يحلو لك ولا تخشَ شيئًا. سأجيبك عمّا تسأل. من الأفضل للمرء أن يسأل، بدلًا من أن يرضى بالبقاء جاهلًا. إنّ من يسأل كثيرًا هو الوحيد القادر على فهم العظيم من الأمور. وليس ثَمّ رجلٌ منصفٌ أكثر من ذاك الذي يفهم العظيم من الأمور.

قفز قلب بنيامين فخرًا لكلمات ذلك الحكيم، ذلك المبجّل من الجميع، وهو يخاطبهُ بكلّ ذلك الاهتمام. وبامتنان، طبع قبلة على يد الحاخام، دونَ أن ينبسَ ببنت شفة. وحده الخوف المتعاظم داخل قلبه هو ما كان يمنع الكلمات من الخروج من بين شفتيه المرتعشتين. بيد أنّ الحاخام، وقد كان قد قرأ الكثير من الكتب في حياته، كان قادرًا أيضًا على قراءة ما في الأرواح من صمت، وكان يعرفُ يقينًا أنّ الصبيّ لم

(33) المقصود هنا هو الانتماء إلى العرق اليهودي.

يطق صبرًا على معرفة وجهتهم أو ماذا سيحدثُ له. ولذلك، أخذ يد الصبيّ، وقد كان ينتفض مثل فراشة، فاحتضنها بيده الباردة في لطفٍ، وقال:

-سأكشف لك عن وجهتنا، وهكذا لن يخفى عنك أيّ شيء بعد الآن. اعلم أننا لسنا من يُلحق الأذى بغيرنا. فعلى الرغم من أنّ الطريق التي نسلكها اليوم هي طريق مجهولة من الجميع، إلا أنّ الربّ، في عليائه، ينظر إلينا ويعرف سرائرنا وما اعتزمنا على فعله. ومع ذلك، فإنّ الربّ وحده هو من يعرف نهاية كل هذا.

حافظ الحاخام أليعازر، وهو يخاطب بنيامين، على وتيرة مشيته، حالهُ في ذلك حال رفاقه، الذين اقتربوا منهما في غضون ذلك، ليستمعوا إلى ما يقوله الحكيم للغلام البريء:

-إنّ الطريق التي نسلكها اليوم يا بنّي هي طريق قديمةٌ جدًّا، سلكها آباؤنا وأجدادنا قبلنا، وسبب ذلك أننا كنّا في السّابق شعبًا رحّالًا لسنواتٍ يستحيلُ عدّها، ورجعنا الآن كذلك. وقد يكون قدرنا أن نظلّ على تلك الحال إلى الأبد. من يدري؟ فخلافًا للأمم الأخرى، لم تكن التربة التي كنا ننام عليها تربتنا، والقمح الذي كنّا نأكله والثمار التي كنا نجمعها، لم تنمُ في سهولنا وبساتيننا. لقد كنا نهيم على وجوهنا من بلد إلى آخر، فترتاحُ أجسادنا دومًا داخل أراض غريبة. ومع أننا كنا مشتتين من الشمال إلى الجنوب، مثل حبوب الزؤان في أحد الحقول، بقينا شعبًا متفرّدًا مميّزًا من بين كلّ الشعوب الأخرى بفضل الربّ وإيماننا به. ثمّة قوّة ما، غير مرئيّة، تجمعنا وتوّحدنا، وهذه القوّة هو الربّ إلهنا. أعرفُ، يا بنيّ، أنك تجد صعوبة في فهم هذا، فمن طبائع الحواسّ ألا تدرك إلاّ ما كان مرئيًا، والمرئيُّ هو ما كان مصنوعًا من المادّة وحدها، وهو ما يفسّرُ إقبال الأمم الأخرى على تجسيد الآلهة وإعطائها أجسامًا من

الخشب أو الحجارة أو البرونز. ومن بين كلّ تلك الأمم، ارتبطنا نحنُ بما هو غير مرئيّ والتمسنا روحًا هي أسمى من كلّ أرواحنا. كنّا نثابرُ على عدم الوقوع في غواية المادة، فداومنا البحث وصمدنا في تعلّقنا بالرّوح، لأنّ من يكرّس نفسه للروح يكونُ أقوى من ذاك الذي جعل نفسه عبدًا للمادة. إنّ مصير المادّة التّلف، أمّا الروح التي تنتصرُ دوْمًا على الجبروت فهي خالدة. اعلم يا ولدي أننا حين كرّسنا أنفسنا للربّ الأزليّ وحدهُ، ذلك الذي لا يُرى، صمدنا أمام الزمن، ولأننا تمسّكنا بإيماننا به، ظلّ هو وفيًّا لنا. أعرفُ أنّ معنى كلّ هذا، قد يفلتُ من صبيّ صغير مثلك، لأننا نحنُ أيضًا، في كثير من الأحيان، لا سيّما في أوقات محنتنا، كنّا نعجزُ عن فهم لماذا الربّ والعدلُ، الذين نؤمن بهما، لا يتبدّيان لنا، هنا، في عالمنا هذا. لذلك لا أريدك أن تحزن إذا لم تفهم، ومع ذلك يتعيّنُ عليك أن تظلَّ منتبهًا...

«كلّي آذان صاغية»، قال الصبيّ المبهورُ بخجل.

-... وهذا الإيمان، في ذاك الذي يستحيلُ تجسيده، هو ما رافق آباءنا وأجدادنا في كلّ أنحاء العالم. ولكي يشهد أجدادنا على أنفسهم بأنّهم يؤمنون بالربّ الذي لا يُرى والذي لا يظهر لمخلوق قطّ ولا يمكن تجسيمه بأيّة صورة، صنعوا رموزًا، وسبب ذلك أنّ عقولنا تظلّ قاصرة عن فهم كلّ ما هو لا نهائيّ وتمثّله، ولأنّ جزءًا يسيرًا من الألوهية، وأعني انعكاس نورها الشاحب الذي يضيءُ على الإنسانية، يمكن أن يصل إلينا في بعض الأحيان. نعم، لقد صنعنا رموزًا هي عبارة عن ذخائر مقدّسة لكيلا تتحوّل قلوبنا عن واجبنا في خدمة كلّ ما لا يُرى، أي العدل والنعمة، ذخائرُ كانت رعايتها تتطلّب جهودًا مستمرّة، فصنعنا الشمعدان الذي نسميه المينوراه، وهو شمعدانٌ آلينا على أنفسنا أن تظلّ شموعه تشتعلُ إلى الأبد، وصنعنا مذبحًا

نعرضُ عليه الخبز الذي نُغيّره باستمرار. إنّ هذه الذخائر المقدسة- احفظ هذا جيّدا- لم نقصد من ورائها أن نجسّد الربّ، كما فعلت الأمم الأخرى حتّى غرقت في كفرها، ولكنّها كانت شهادتنا الوحيدة على ما في إيماننا من حماسٍ. وحيثما انتقلنا، كانت مقدساتنا ترافقنا، محفوظة داخل تابوت العهد، ومؤمّنة جيّدًا في الخيمة، التي كان آباؤنا -وقد كانوا مثلنا بلا أرض- يحملونها على أكتافهم. لم يكن مسموحًا لنا أن نتوقّف ما لم يتوقف تابوت العهد، وحين يتحرّك، كنّا نتبعه. ولآلاف السنين، ظلّ الشعبُ اليهودي، في استقراره أو ترحاله، مجتمعًا ليلًا ونهارًا حول تلك الآثار المقدّسة، لأننّا سنبقى شعبًا واحدًا، حتى في المنفى، طالما أننا نحرسها.

اسمعني جيّدا. داخل تابوت العهد يوجدُ المذبحُ الذي نضع عليه خبز الوجوه وثمار الأرض، وفيه أيضا المباخر التي يصعدُ منها البخور إلى الربّ، وفيه ألواح الشريعة التي وثّق الرب الأزليّ فيها عهده معنا. والشمعدانُ هو الأكثرُ بروزًا من بين كلّ تلك الذخائر، إذ لطالما أضاءت شعلته مذبحَ قدس الأقداس، لأنّ الربّ القدير كان يحبّ أن يرى النور الذي خلقهُ، وهذا الشمعدان صُنعَ لكي نشكره على إعطائه تلك النعمة لعيوننا وأرواحنا. لقد صُنع، بحرفيّة، من الذهب الخالص، بمواسيرَ سبعة تخرجُ من قلبه وبأكاليل منحوتة تزّينه. وعندما تحترق الشموعُ في كاساتها، يخرجُ النور من الزهرات السبع، فتتبتّل قلوبنا من هذا المنظر. وعندما يضيء هذا النورُ في نهار السبت، تصبحُ أرواحنا هيكلًا للتأمّل. ولهذا السبب لا يوجدُ رمزٌ آخر في هذا العالم، أغلى على قلوبنا، من هذا الشمعدان. واعلم أنّه في كلّ منازل الأرض، حيثما وجدَ يهودي يُحافظ على إيمانه في مقدساتنا، يوجدُ أيضا مجسّم للمينوراه يرفعُ مواسيره السبعة وكأنّه يتهيّأ للصلاة.

-لماذا سبعة؟، استفسر الطفل بصوت خجول.

-اسأل، يا بنيّ، اسأل بجرأة. فمن السؤال تأتي المعرفة. إن الرقم «سبعة» هو الرقم الغامض والأسمى من بين كلّ الأرقام. فالربّ خلق الكون والإنسان في سبعة أيام. ومن أعظم المعجزات أن يكون الإنسانُ في هذا العالم وأن يشعر بخالقه ويتعرّف إليه ويحبّهُ من كلّ قلبه. لقد علّم الربّ الحواس أن ترى، والروح أن تعقل وهو يمنحنا النور، ولهذا يرفعُ الشمعدان مواسيره السبعة في اتجاه السماء لتمجيد النور، سواء كانَ نور قلوبنا أو نور العالم الخارجيّ. واعلم أنّ الربّ منحنَا أيضا نور قلوبنا عن طريق الكتاب المقدّس. فإذا كان نور العالم الخارجي يعرف بالبصر، فإنّ نور القلب يدركُ بالبصيرة، واعلم أنّ ما تقدّمهُ الشعلةُ للحواس، يقدّمه الكتاب المقدّس للروح، لأنه يحوي كلّ شيء، أي أعمال الربّ وأعمال آبائنا، وقواعد السلوك، وما هو محلّلٌ وما هو محرّمٌ، والروحُ الخالقة والشريعة المنظّمة. وبمنحنا نورهُ، قدّم لنا الربّ الأزليّ، فرصة إدراك العالم مرّتين، مرّة بالجسد ومرّة بالروح، حتى بات في مقدورنا أن ندرك طبيعته المخصوصةِ من خلال نورهِ. هل فهمت ما أقول يا بنيّ؟

أطلق الصبّي زفرة وقال:

-لا.

-حسنا، عليك أن تتذكر هذا فقط، وسوف تفهم الباقي عندما يحينُ الوقت: إن أكثر الرموز التي نحملها في ترحالنا قداسةً، والشهادات الوحيدة المتبقيّة عن جذورنا، هي الكتابُ والشمعدان، التوراة والمينوراه...

-التوراة والمينوراه...

كرّر الصبيّ في احترام بالغ وهو يشبك يداه لكي تُحفر تلك الكلمات في ذاكرته.

-اسمعني مرّة أخرى! لقد حدث أن جاء وقت، وقد كان ذلك منذ زمن بعيد، أن شعرنا بأننا تعبنا من حياة الترحال، والمعلوم أنّ الإنسانَ يعطشُ إلى الأرض مثلما تعطشُ هي لهُ. وعندما بلغنا، بعد التيه، الأرض التي وعدنا بها موسى، تحوّزنا عليها لأنّها من حقّنا، فحرثناها وبذرناها وغرسنا فيها الكروم وربّينا فوقها الماشية. وعندما صارت حقولنا خصبة طوّقناها بالأسيجة والأسوار، وشعرنا بالابتهاج لأننا لم نعد ضيوفًا دائمين على الأمم الأخرى، سواء تلك التي كانت تتسامح معنا أو تلك التي سعت للتخلّص منا. لقد اعتقدنا أنّ زمن هجراتنا ولّى إلى غير رجعةٍ حتى بلغت بنا الجرأة إلى حدٍّ صرنا نقولُ معهُ أنّ تلك الأرض هي أرضنا، وكأن الأرض ملكٌ دائم للإنسان، هذا الذي أُقْرِضَ كلّ شيء، بيد أنّه ينسى أنّ التحوّز لا يعني الإمساك، وأن الامتلاك لا يعني الاحتفاظ. وهكذا هو الإنسانُ، إنّه يشيّد بيته فوق الأرض حيث يشعرُ بالتربة تحت قدميه، ويسعى إلى التشبّث بها مثل جذور الأشجار.

وللمرة الأولى في تاريخنا، شيّدنا بيوتًا ومدنًا، ولأنّ كلّ واحد منّا صارَ لهُ بيت، حفّزنا الامتنانُ على إقامة بيت للربّ الذي كفلنا، بيت هو الأعلى والأعظم من بقية البيوت، وهذا البيت هو الهيكل. ففي تلك السنوات المباركة حكم بلادنا رجلٌ غنّي حكيمٌ اسمه سليمان[34]...

-فليتمجّد اسمه!، كذلك قاطعهُ أبثاليون بصوت خفيض.

-فليتمجّد اسمه!، كذلك كرّر الشيوخُ وراءه وهم يواصلون سيرهم.

(34) في الديانة اليهودية، يعتبر النبي سليمان ملكًا، مثل أبيه داود.

-...الذي شيّد هذا الهيكل على جبل موريا[35]، وهو جبلٌ رآهُ سلفنا يعقوب في حلمه، ورأى معهُ السلّم السماويّ[36]، وقال عنه عندما استيقظ من نومه: «مقدّسٌ هو هذا المكانُ وسيكون كذلك لجميع أمم الأرض». في تلك البقعة، شيّد سليمان هيكلنا الذي استخدم في بنائه أرقى أنواع المواد والحجارة وخشب الأرز والبرونز المنحوت. وعندما انتهى من بنائه، رفع آباؤنا أعينهم إلى جدرانه، فاطمأنت قلوبهم، وقد بدا لهم أنّ الربّ رضي أن يقيم بينهم إلى الأبد، وأعطى لهم وعدًا بأن يكون لهم مستقبل من السلام. وكما استقررنا نحن في بيوتنا، استقرّت خيمة الربّ داخل الهيكل المقدس ومعها تابوت العهد الذي كان ينزح من مكان إلى آخر باستمرار. وكانت المينوراه تضيءُ المذبح بشعلاتها السبع، ليلًا نهارًا. وبالمثل، كان كلّ ما هو مقدّس لدينا مخبّئًا داخل قدسِ الأقداس. ومع أنّ الربَّ لا يُرى، كما كان وكما سيظلّ دومًا، إلاّ أنّهُ استراح أخيرًا في أرض أجدادنا داخلَ هيكل أورشليم.

-لتراهُ عيوننا مرّة أخرى! كذلك تمتم السّائرون وكأنّهم يصلّون.

-...ولكن اسمعني ثانيةً يا ولدي. إنّ كل ما يمتلكه الرجل هو ما أقرض له، واعلم أنّ السعادةُ ما هي إلاّ عجلةٌ تدور. فسلامنا لم يكن دائمًا، كما اعتقدنا، إذ حدث أن جاء شعبٌ بربريٌّ من الشرق واستولى على مدينتنا، مثل أولئك اللصوص الذين رأيتهم يدخلون إلى روما، أرض منفانا. لقد وضعوا أيديهم على كل ما استطاعوا الوصول إليه وحملوا كل ما كان قابلًا للنقل، ودمروا كل ما كان قابلًا للكسر، ولم يتركوا سوى شيء واحد هو ما لا تراهُ العين، كلمة الله ووجوده بيننا. وهكذا انتزعوا

(35) جبل موريا (جبل «بيت المقدس»): ومعناه «المختار.»

(36) على جبل موريا حلُم النبي يعقوب بسلّم يرتفع إلى الجنّة، وهناك بنى سليمان الهيكل، حسب النص التوراتي.

المينوراه من المائدة المقدّسة واستولوا عليها، لا لأنّها مقدّسة في نظرهم - فخدم الشرير لا يميّزون ذلك- ولكن لكونها مصنوعة من الذهب وهو معدنٌ يستهوي اللصوص. وهكذا سَبوْا الشعب وحملوا الشمعدان والمذبح والمزهريّات إلى بابل.

-بابل؟، كذلك قاطعه الصبيّ بخجل.

-... اسأل ولا تتردد، يا بنيّ، اسأل، وليجِبك الربّ دوْمًا. لقد كانت بابل مدينة عظيمة قويّة، كالمدينة التي نعيش فيها الآن، وكانت بعيدة عن موطننا كالنجوم التي فوقنا. ولكي تقيس المسافة التي قطعتها المزهريات المقدّسة في طريقها إلى بابل، حاول أن تعُدّ معي. انظر، نحنُ نسيرُ منذ ثلاث ساعات، حتى التوت أطرافنا وتقوّست من الإرهاق. وبابل كانت أبعد من الطريق التي قطعناها حتّى الآن بثلاث آلاف مرّة. ربّما تقدرُ الآن أن تقيس بنفسك ما قطعه الشمعدان من مسافة! ولكن تذكر هذا جيّدا: إنّ المسافات لا تعني شيئًا أمام إرادة الربّ الأزليّ. فعندما رأى الرب أننا ما زلنا نحفظُ كلمته في المنفى- لعلّ الحكمة من وراء تعرّضنا للاضطهاد المستمرّ في هذا العالم تكمنُ في معنَيَيْ الطرد الذي يجعلنا نعظّمُ مقدّساتنا أكثر والبؤس الفائض الذي يجعلُ قلوبنا أكثر تواضعًا- قلتُ، عندما رأى الربُّ صمودنا في تلك المحنة، أيقظ قلب أحد ملوكِ ذلك الشعب الأجنبي، فاعترف بأخطائه وسمح لآبائنا بالعودة إلى الأرض الموعودةِ، معيدًا لهم الشمعدان وكلّ الذخائر المقدسة. وهكذا عادوا من أرض الكلدانيين إلى أورشليم عبر الغابات والجبال والصحاري. لقد عدنا سالمين، من الجانب الآخر من العالم، إلى الأرض التي كنّا فيها وحيث سنكونُ دومًا وفقًا لمعتقدنا، وأعدنا تشييد الهيكل على جبل موريا، وعندما أنارت مواسير المينوراه السبعة مذبح الربّ من جديد، اشتعلت الفرحةُ في قلوبنا. ولكن تذكر هذا جيدا،

حتى تفهم المغزى من خروجنا الليلة: ما من تحفة في العالم، مهما تقادم عليها الزمن ومهما ارتحلت في المكان والزمان، أعظمُ توقيرًا في أعيننا من هذا الشمعدان بمواسيره السبعة. إنه أثمنُ تعهّدٍ نمتلكهُ على وحدتنا ونقائنا، وهذا ما يفسّرُ انطفاء نورهُ كلّما أحاطت الظلمات بمصائرنا.

عند ذلك الحدّ، توقف الحاخام أليعازر عن الكلام، وقد بدا الإجهادُ على صوته، لكنّ الولد الصغير رفع رأسه بنشاطٍ، وكأنّهُ شعلة متوهّجة، والخوف من أن تكون القصّة قد انتهت هنا، يُقرأ في نظراته. وعندما لاحظ الرجل العجوز قلق الطفل، ابتسم، ومسح شعرهُ برفق ثمّ طمأنه قائلًا:

-يا لهُ من لمعانٍ أراهُ في عينيك يا ولدي! ولكن لا تخش شيئا! فقدرنا لا نهاية له، وبوسعي أن أستمرّ في سرد قصّتنا على هذا النحو لسنوات طويلة ومع ذلك لن تتعرّف إلا على جزء ضئيل من الطريق المرسومة لنا. وطالما أنّك تستمع لي جيّدًا وعن طيب خاطر، فلتعرف إذن ما حدث في موطننا! لقد ذهب في اعتقادنا مجدّدًا أن الهيكل أعيد تشييدهُ في تلك المرّة لكي يبقى إلى الأبد، ولكن أعداء جدد قدموا من البحر، وجاؤوا من هذه البلاد، تحت قيادة إمبراطور محارب يدعى تيتوس...

-ملعونٌ هو اسمه!، كذلك تمتم السّائرون.

--... فدمّر الكافرُ أسوارنا ودكّ هيكلنا وانتهك قدس الأقداس واستولى على الشمعدان من فوق المذبح. ولقد أسكره السّعارُ حتى سرق العجائبَ التي خصّصها سليمان لأجل مجد الربّ الأزليّ، ومثلما حمل ملكنا أسيرًا إلى بلده، حمل ذخائرنا تخليدًا لانتصاره، وهناك استقبله شعبه الأحمق بالهتافِ، وكأنّ جنوده هزموا الربّ نفسهُ

وجرّوه خلفهم مصفّدًا في أغلاله. لقد وجد الفاسق في تدنيس مقدساتنا أمرًا يثيرُ الإعجاب، وفي هواننا غُنمًا كبيرًا، حتى إنه شيّد بوابة ضخمة لكي يخلّد انتصارهُ وأمر بنقش صورة ما سلبه من الربّ فوق رخامتها.

رفع الصبيّ وجهه المغتمّ قائلا:» هل تقصد قوس النصر الذي يحملُ صور أولئك الرجال المنحوتين من الحجارة، والمنتصب أمام الساحة الكبيرة، ذاك الذي حرّم عليّ أبي المرور من تحته؟»

-نعم، إنّه هو يا بني. يجب أن تمرّ من أمامه دون أن ترفع بصرك إليه، لأنه يذكّرنا بأكثر أيّام تاريخنا إيلامًا. ليس مسموحًا لأيّ يهودي أن يمرّ تحت تلك البوّابة التي نقش عليها ما نقدّسه وما سنظلّ نقدّسه دومًا. تذكّر ذلك في كلّ مرّة...

قطع العجوز كلماته في منتصف جملته، عندما قفز هيراكونوس بن هلال من خلفهِ ووضع يده على فمه، ففزع الشيوخُ من جراءته على الحاخام، لكن هيراكونوس لم يقل شيئًا مكتفيًا بمدّ ذراعه إلى الأمام. من بعيد، تحت الضوء الشاحب للقمر المحجوب بالضباب، استطاعوا أن يميّزوا -وإن بصعوبة- كتلة داكنة تشبه إلى حدّ كبير يرقة ضخمة تزحف أمامهم فوق الطريق البيضاء. توقّف الشيوخ بغتة وهم يحبسون أنفاسهم، وقد تناهى إلى أسماعهم صرير العربات الفائضة بأثقالها، آتيًا من جوف الليل. كما استطاعوا أن يروا شيئًا يلمعُ فوق تلك القافلة الداكنة، كما تلمع حزم الأعشاب تحت ندى الصباح، وكان ذلك الشيء هو رؤوسُ حراب حرس المؤخّرة النوميديين الذين كانوا يحرسون العربات المحمّلة بالأسلاب.

في تلك اللحظة، تفطن الحرّاس، ذوو العيون الثاقبة، إلى المجموعة التي كانت تتبعهم، فأداروا أعنّة خيولهم في وقت واحد، قبل أن تنفصل عنهم مفرزة من الجنود راحوا ينهبون الأرض نهبًا في اتجاه الشيوخ، رافعين حرابهم وهم يطلقون صرخات حادّة. كانوا يكادون ألا يجلسوا فوق مطاياهم فيما راحت برانيسهم تتطايرُ من خلفهم، حتّى ليخيّل للمرء أنّهم يمتطون جيادًا طائرة. وعلى نحوٍ غريزيّ، وضع الأحد عشر عجوزًا الصبيّ في الوسط، وتلاصقوا. في غضون ذلك، كان الفرسان يركضون في اتجاههم صارخين، بالعزم نفسه، قبل أن يشدّوا أعنّة جيادهم على نحو مباغتٍ ويتوقّفوا على بعد ثلاث خطوات فقط من اليهود المرعوبين. وعندما تفرّسوا في وجوههم عن كثب، تحت ضوء القمر، أدركوا أنهم ليسوا جنودًا يطاردونهم لينازعوهم على ما يحملونه من غنائم، وإنما مجموعة من الشيوخ المسالمين، بلحيّهم البيضاء، وزوّاداتهم التي يحملونها بيد وعصيهم التي يمسكونها بالأخرى. وكما جرت العادة في بلادهم كلّما صادفوا الحجاج الأتقياء الذين يرتحلون من مكان إلى آخر، ابتسموا بلطف للشيوخ، حتّى إنّ أسنانهم اللامعة أضاءت وجوههم الداكنة الشرسة، قبل أن يطلق أحدهم صافرة قصيرة حادة، فأدار جنود المفرزة عندئذٍ جيادهم وعادوا إلى غنائمهم، بخفّة، كأنّهم سربُ طيورٍ يحلّقُ في السّماء، تاركين وراءهم الشيوخ الذين لم يدركوا في تلك اللحظة، وقد جمّدهم الرّعب، أنّ حيواتهم قد حفظت وأنّهم نجوا من موت أكيد.

كان الحاخام أليعازر، الطاهر الهادئ، أوّل من استعاد رباطة جأشه، فربّت بحنان على خدّي الصبيّ، ومال عليه قائلًا:

-أنت شجاع حقًا. لقد كنت أمسك يدك بيدي، ورأيتُ أنّها لم ترتجف. هل تريدُ أن أواصل سرد حكايتي؟ لأنك لا تعرفُ بعد إلى أين نمضي ولماذا نحن هنا في هذه الليلة.

-احكِ لي، كذلك تمتم الفتى بلهجة أقرب إلى الصلاة.

-لقد كنتُ أقول لك - تتذكّر ذلك- إنّ تيتوس الملعون حمل مقدّساتنا إلى روما وعرضها على أهل المدينة بغرورٍ لا حدّ له. وفي وقت لاحق، وضع كلّ من خلفهُ من أباطرة المينوراه وباقي متعلّقات هيكل سليمان، داخل بناية أطلقوا عليها اسم «هيكل السلام»، ويا له من اسم بلا معنى! كأن السلام يمكنُ أن يدوم ويجدُ له موطنًا في عالمنا العدوانيّ. غير أنّ الربّ الأزليّ رفضَ أن تبقى تلك الذخائر التي زيّنت بيته، فوق الجبل المقدّس، داخل هيكل أجنبي. ففي واحدة من الليالي، أرسل نارًا التهمت المعبد، وأتت على تماثيله وكنوزه، ولم ينجُ من ألسنة لهبها النّهمة سوى الشمعدان. وكانت تلك آية أخرى على أنّ لا سلطان للنّار أو المنفى أو حتى أيادي الرّجال الآثمة عليه. لقد أرسل الرّب، من خلال تلك الواقعة، تحذيرًا إليهم، نبههم من خلاله إلى ضرورة إعادة الذخائر إلى المكان المقدّس، هناك حيث اعتدنا نجلّها باعتبارها أدوات مقدّسة حقّا لا بسبب قيمتها المادية. ولكن متى كان الحمقى يفهمون تحذير السماء، ومتى كانت قلوب الرجال الصلبة تنصتُ إلى صوت العقل؟

تنهّد الحاخام أليعازر ثمّ استأنف حديثه:

-...لقد أخذوا منّا، إذن، الشمعدان المقدّس فانتقل مرّة أخرى إلى بيت جديد شيّده الإمبراطور، وهناك رقد لسنوات طويلة، داخل غرفة محصّنة، لأنهم كانوا

يعتقدون أنّهم سيحتفظون به إلى الأبد. غير أنّ كلّ لصّ يسلَّطُ عليه لصّ آخر يهاجمهُ، ذلك أنّ ما يؤخذ بالعنف يُستردّ بالعنف. وكما استباحت روما أورشليم، هاجمت قرطاج روما، فنهبتها كما نهبتنا، واستباحت مقدّساتها كما استباحت مقدّساتنا. ومع ذلك، فإن هؤلاء الناهبين، الذين تراهم من بعيدٍ في هذا الليل، هم أيضا أخذوا منّا الشمعدان المقدّس، وعرباتهم التي تسبقنا، أخذت منّا ما تهفو له قلوبنا دومًا. وغدًا، سوف يحملونه إلى سفنهم، ويرحلون به تحت سماوات أخرى، بعيدًا عن أنظارنا الجزعة. ولن يضيئنا نوره بعد الآن، نحنُ الذين صرنا طاعنين في السنّ! وإذ كنّا اليوم نمشي وراء المينوراه التي تُحمل بعيدًا عنّا كما نمشي وراء جثمان عزيزٍ علينا لكي نشيّعهُ في رحلته الأخيرة، فإننا نفعل ذلك لكي نظهر لهُ حبّنا. إننا بصدد فقدان أكثر ذخائرنا قداسةً، فهل تفهم الآن سرّ الحزن الذي يغلّف مسيرتنا؟

واصل الصبيّ تقدّمهُ، صامتًا، مطأطئ الرأس، وقد بدت عليه أماراتُ التفكير العميق. فاستأنف الحاخامُ حديثه قائلًا:

--...ولكن تذكّر هذا جيّدا: لقد أخذناك معنا لتكون شاهدًا على هذه الرّحلة. في وقتٍ لاحق، حين تضمّنا الأرض، ستشهدُ بأننا بقينا مخلصين للشمعدان وتعلّم الآخرين أن يبقوا كذلك، وتساعدهم على الاحتفاظ بما آمنّا به. إنّ قدر هذا الشمعدان أن يرجع دوْمًا من رحلاته داخل الظلمات، وسيأتي ذلك اليوم المجيدُ الذي سُينيرُ فيه، بمواسيره السبع، مذبح الربّ. لقد أيقظناك من نومك لكي يستيقظ قلبك وتسرد لاحقًا كلّ ما جرى من أحداث في هذه الليلة لأحفادنا. تذكّر أن تواسيهم وتقول لهم إنك رأيت المينوراه، بأمّ عينيك، رأيت المينوراه التي ظلّت ترتحلُ

من مكانٍ إلى آخر منذ آلاف السنين وتُحفظُ كما حفظ شعبنا في منفاه، رأيت المينوراه التي لن تختفي قطّ- أجزم بذلك- ما دام شعبنا لم يختفِ.

كان الصبيّ ما يزالُ صامتًا، وهو ما جعل الحاخام أليعاز يستشعرُ وجود مقاومة ما في ذلك الصمت، فمال على الصبيّ قائلًا: هل فهمت ما قلتهُ لك؟

ظلّت جبهة الصبيّ متغضّنة وبدا التعنّت على ملامحه وهو يقول:

-لا! لم أفهم. لو كان هذا الشمعدان عزيزًا علينا حقًّا ومقدّسًا في أعيننا كما تقول، فلماذا يتوجّب علينا أن نتألّم في كلّ مرّة يُنتزعُ فيها منّا؟

تنهدّ العجوز قائلًا:

-معك حق، يا بني! لماذا يتوجّب علينا أن نتألّم في كلّ مرّة يُنتزعُ فيها منّا؟ لماذا لا ندافع عن أنفسنا؟ حسنًا، سيأتي يوم تفهم فيه أنّ الحقّ، في هذه الدنيا، كان دوْمًا في صفّ الأقوياء لا العادلين. لطالما فرض الجبروت إرادتهُ، أمّا التقوى، فلا حول ولا قوّة لها في هذا العالم. لقد علّمنا الربّ كيف نتحمّل الظلم لكنّه لم يعلّمنا كيف نفرض احترام حقّنا بالقوة!

ألقى الحاخام أليعاز كلماته تلك، خافضًا رأسه، دون أن يتوقف عن المشي، لكنّ الصبيّ انتزع يدهُ منه بغتةً، وأجبرهُ على التوقّف. وبجرأة، وبلهجةٍ تكادُ تكونُ متسلّطة، قال للعجوز مرتجفًا:

-أين الربّ في كلّ هذا؟ لماذا يسمحُ بهذه السرقات المتكررة؟ لماذا لا يهبّ لنجدتنا؟ لقد دعوته بالعادل القدير، فلماذا ينتصرُ إلى اللصوص ويتخلّى عن المنصفين؟

في تلك اللحظة، استبدّ الفزعُ بالجميع، وتوقّفوا عن السيّر مثلما توقّفت قلوبهم عن الخفقان، حتّى إنّهم شعروا بتردّد صدى سؤال الصبيّ المتهوّر وكأنّهُ فرقعة مبهرة شقّت حجب الظلمات البائسة. لقد بدا لهم إنّ الصبيّ أعلن الحرب على الربّ في تلك اللحظة.

كان أبثاليون حانقًا، وكادت الدماء أن تنفرُ من عروقه، فنهر حفيده في قسوة:

-اخرس ولا تجدّف على الرب!

لكن الحاخام أليعازر قاطعه قائلًا:

-أنت من يتعيّن عليه أن يخرس! لماذا توبّخ هذا الصبيّ البريء؟ هو لم يفعل شيئًا إلاّ أنّه سأل، بسذاجة قلبه، عمّا كنا نسأله نحنُ، أنا وأنت بل كلّنا وكلّ حكماء شعبنا، ليلًا نهارًا، وذلك منذ بدء الأزمنة. كلّ ما فعلهُ هذا الصبيّ هو أنّه طرح سؤال شعبنا الأزليّ: من بين كلّ الأمم، لماذا اختار الربّ أن يعاملنا بكل هذه القسوة، نحن، أجل نحنُ الذين نخدمه أفضل من الآخرين؟ لماذا يرمينا تحت أقدام بقيّة الأمم لتدوس علينا، نحن الذين آمنا به وكنّا أوّل من مجّده في كينونته التي لا تدرك؟ لماذا يدمر ما نبنيه، لماذا يحطّم آمالنا، لماذا يطردنا من كلّ الأراضي الذي استوطناها؟ لماذا يثير علينا كره كلّ الأمم في كلّ مرة؟ لماذا يمتحننا بكلّ هذه القسوة، نحنُ الذين اختارنا وعلّمنا سرّهُ؟ لا. لن أكذب أمام هذا الصبيّ حتى لو جدّف على الربّ. أنا نفسي أجدّف في

كل يوم يمرُّ عليّ من أيّام حياتي. انظروا، هأنذا أعترف بذلك أمامكم جميعا: أنا لا أقدر أن أمنع نفسي عن ذلك. إنّي أتشاجر يوميّا مع الربّ، وهأنذا وقد بلغت الثمانين من عمري، ما أزال أطرحُ على نفسي هذا السؤال الذي طرحه الصبيّ البريء، لماذا يغرقنا الربّ في هذه المحنة العميقة؟ لماذا يتكبّد كلّ هذا العناء في اضطهادنا، بل لماذا يساعدُ كلّ هؤلاء اللصوص في كلّ ما يفعلونه؟ صحيح أنّي ما ألبث أن أتوب إليه فأضاعفُ من القرع على صدري، ومع ذلك، ما زلتُ إلى الآن أعجزُ عن قمع ما في قلبي من صرخات متشكّكة. لن أكون يهوديًا أو إنسانًا، لو قلتُ إنّ هذا السؤال لا يعذّبني في كلّ لحظة، وهأنذا أعترفُ أمامكم بأنّ الموتُ وحدهُ هو ما سيمنعني من طرحهِ مجدّدًا.

كان الشيوخ يرتجفون في تلك اللحظة، إذ لم يسبق لهم أن رأوا الحاخام، الطاهر الهادئ العادل، في مثل تلك الحال. لقد كان اتهامه للربّ ينبعُ من نكوص خفيّ، يوجدُ داخل روحه، نكوص كانوا يجهلون وجودهُ إلى حدود تلك اللحظة، بل إن رؤيته على تلك الحال، بأطرافه المرتجفة، وآلامه الفائضة، ومحاولاته الخجولة لكي يتفادى نظرات الطفل المندهشة، كانت تربكهم أكثر فأكثر. غير أنّ الحاخام أليعازر سرعان ما استرجع هدوءه ومال مجددًا، على الصبيّ، وقال دافعًا بكلماته المهدّئة:

-اغفر لي أني وجهت حديثي إليهم، وإليه، هو الذي فوقنا جميعًا، بدلاً من الإجابة عن سؤالك. لقد سألتني، بسذاجة قلبك، لماذا سمح الربّ بارتكاب تلك الجرائم في حقنا وفي حقه هو أيضًا؟ أما أنا، فأقول لك، بسذاجة قلبي، صادقًا ما وسعني الصدق، إني لا أعرف. أجل، نحنُ لا نعرف خطط الربّ الأزليّ ولا نستطيع أن نخمّن في ماذا يفكّر. بيد أنّي، في غمرة ما يولّدهُ ألمي من إحباطٍ وما نشتركُ فيه جميعنا

من بؤسٍ يفيضُ على قلوبنا، أحاول أن أعزّي نفسي قائلًا إنّ هناك -بلا شكّ- مغزى من كلّ هذه المعاناة، مغزى لا ندركُ كنهه، وأنّ كلّ واحدٍ فينا، ربّما كان بصدد التكفير عن ذنب ما قد ارتكبه. ترى هل أخطأ سليمان حين بني هيكلًا للربّ في أورشليم، وكأن الربّ إنسانٌ يرغب في الاستقرار في مكان واحد وبين شعب واحد؟ هل أذنب عندما شيّد للرب بيتًا فخمًا جدّاً، كأنّ الذهب أفضل من التقوى والرّخام أفضل من الثبات على طريق الإيمان؟ هل تصرّفنا نحن، شعبه اليهودي، ضدّ إرادته عندما أردنا وطنًا لنا وبيتًا نسكنُ إليه كما الأمم الأخرى، قائلين إنّ هذا هو وطننا وهذا هيكلنا وهذا ربّنا، مثلما نقول هذه أيادينا وهذا شعورنا؟ لعلّ الرب أراد تدمير الهيكل ونفينا لكيلا تتعلّق أرواحنا بالمادة، وهكذا نخلص له على نحوٍ أكثر عمقًا، هو الذي لا يُرى ولا يمكنُ إدراكه...لعلّ قدرنا الحقيقي يكمنُ في حتميّة أن نظلّ على الطريق، نادمين دوْمًا، مجتاحين بالحنين، عطشى للراحة وتائهين إلى الأبد. الحقّ أنّ لا شيء مقدّس في عيني سوى هذه الطريق التي نسلكها دون أن نعرف الغاية من ذلك ومع ذلك نصرّ على اجتيازها، كما يحدثُ معنا الآن، ونحن نسير في هذه الظلمة، وسط كلّ هذه المخاطر، دون أن نعرف ما ينتظرنا.

كان الصبيّ ما يزالُ ينصتُ إلى الحاخام أليعاز، لكن الأخير أنهى حديثه بغتةً وهو يقول:

-لا تسألني عن أيّ أمر آخر بعد الآن. إنّ ما تسأله يتجاوزُ علمي، فتعلّم واصبر الآن، لعلّ الربّ يجيبك في أحد الأيّام على ما كلّ ما يمور في قلبك من أسئلة.

عندما سكت العجوز، لاذ البقيّة بالصمت. وعلى ذلك النحو لبثوا طوال الطريق وقد لفّهم الليل هو الآخر بصمته. لقد بدوا وحيدين في ظلمات ذلك العالم وكأنّهم خارج الزّمن تمامًا.

فجأة، مدّ أحد الشيوخ ذراعه إلى الأمام مرتجفًا. كان قد تملّكه ذعرٌ مفاجئ فطفق يشيرُ على الآخرين أن يصيخوا السّمع. بدا لهم أنّهم سمعوا همهمة خافتة تسري في الفضاء، وإذ اعتقدوا أوّل الأمر أنّها صوت عزف خفيف على قيثارة، إلاّ أن ارتفاعها المباغت وهي تقترب منهم ذكّرهم بما تصدره الريّاح أو البحر من ضوضاء. ودون سابق إنذار، ثارت العاصفة في ذلك الجوّ الخانق، فباعدت أشجارُ الطرّيق بين أغصانها كأنّها تسعى إلى إبقائها في الفراغ، واندفعت غمغمات مرتبكة من الأجمات، وثارَ الغبار في الطّريق حتى بدا الأمر كأنّ نجوم السّماء انطفأت على حين غرّة. في تلك اللحظة، ارتجف الشيوخُ المضطربون من كلمات الحاخام أليعاز بخصوص قدرهم، وراحوا يتساءلون في قرارة أنفسهم، وقد أحسّوا باقتراب الرّب منهم، إن كان الأخيرُ سيقدّمُ لهم -على نحو مباغت- ما كانوا يتمنونه من إجابات على أسئلتهم. ألم يرد في ألواح الشريعة أنّ الربّ موجودٌ في رياح العواصف وأنّهُ يتكلّمُ من وسط الغمغمات المتأنّية؟ وما لبثوا أن ركعوا جميعًا في وقت واحد، موجّهين جباههم إلى الأرض وآذانهم إلى السماء، ودون ترتيب مسبق، أمسك كلّ واحدٍ منهم بيد جاره، التماسًا للدّعم في مواجهة الحدث الخارق، حتى إنّه كان بوسع كلّ واحد منهم أن يسمع قلب جاره وهو يخفق في نبضات متلاحقة.

على أنّ شيئًا ممّا كانوا يتوقعونه لم يحدث. فالعاصفة هدأت فجأة كما ثارت، واستقرّت حركة الأعشاب رويدًا رويدًا، وعمّ الصمتُ مجدّدًا، صمت لم تقطعه بعد

ذلك أيّ ضوضاء. وعندما انتزعوا أعينهم أخيرًا من الأرض، الواحد بعد الآخر، شاهدوا وميضًا هادئًا وضّاحًا يثقب الظلمة من جهة الشرق، فأيقنوا عندئذٍ أنّ ما خُيّل إليهم أنّه عاصفة كان في واقع الأمر ريح كلّ يومٍ، وقد هبّت مؤذنة ببزوغ فجر يوم جديد. ولم تمضِ ثوانٍ حتّى وقعت المعجزة اليوميةً، وأخذ شروق الشمس مكان الظلمات على الأرض. وبينما هم واقفون في أماكنهم لا يزايلهم الاضطراب، إذ بانبلاج الفجر الورديّ يتكاثفُ عند الأفق وشرعت حواف المشهد الطبيعي الباهتة في الظهور أمام أعينهم بعد أن مزّقت ما كان يحيط بها من حجب الظلام. وما لبثوا أن أدركوا أن الليل -ليل مسيرتهم- قد انتهى.

في تلك اللحظة، تكلّم أبثاليون فقال بخيبة أمل:

-لقد بزغ الفجر. هيّا إلى الصلاة.

اقترب الأحد عشر شيخًا من بعضهم، بينما تنحّى الصبيّ جانبًا لأنّه كان ما يزالُ صغيرًا جدًّا على مشاركتهم الصّلاة، وعمدوا إلى زواداتهم فأخرجوا منها شالات الصلاة التي غطوا بها رؤوسهم وأكتافهم، ثمّ قاموا بربط أحزمة التفيلين حول جباههم وأذرعهم اليسرى، حيثُ جهة القلب، واستداروا بعد ذلك ناحية الشرق، مستقبلين أورشليم، وراحوا يقدّمون الشكر للخالق عبر ترتيل ثمانية عشر تسبيحًا كانت كلّها تتغنى بكماله. كانوا يرتّلون بصوتٍ خفيض وهم يتمايلون بأجسادهم، إلى الأمام وإلى الخلف، متتبعين إيقاع الكلمات. صحيح أن الصبيّ لم يفهم كلّ ما كان يقال أمامه، لكنّه عاين ما في تمايل الشيوخ وهم ينشدون من حماسةٍ ذكرته بحركة الأجمات قبل قليلٍ عندما تمايلت بفعل هبوب ريح الربّ. وبعد أن فرغوا من صلاتهم ونطقوا كلمة «آمين» بتوقير، انحنوا على شالاتهم فطووها واستعدّوا

للرّحيل. لقد بدوا في تلك اللحظة، وضوء الصباح ينشر نوره باطراد، كأنّهم طعنوا أكثر في السنّ، فلاحت التجاعيد على جباههم وحول أفواههم كأنّها أخاديد عميقة، وبدت الهالات حول أعينهم أشدّ قتامة. وكمن بُعث من الموت، قطعوا مع الصبيّ، آخر جزء في تلك الرّحلة، وهو الجزءُ الأكثر مشقّة.

كانت الشمسُ الحارقة، في منطقة كامبانيا[37]، قد ارتفعت بالفعل، حين وصل الشيوخ، برفقة الصبيّ، إلى ميناء بورتس، حيثُ يصبّ نهر التيبر مياهه الباهتة الصفراء في البحر. لم يجدوا هناك سوى عدد قليل من سفن الوندال كانت ما تزال راسية في الميناء، لأنّ بقيّة السفن كانت قد غادرت الشاطئ، الواحدة في إثر الأخرى، رافعةً أشرعتها في انتصارٍ، وجوانبها العريضة تكاد تنوء تحت ثقل غنائمها. ولم تمض برهةٍ من الزمن حتّى بقيت سفينة واحدة راسية في الميناء راحت تبتلع في نهمٍ ما كانت تحمله آخر عربات النهب من أسلاب روما. كانت تلك العربات تأتي منقادةً فيفرّغ العبيد شحناتها بالتداول، قبل أن يصعدوا فوق الجسر الخشبيّ الذي يصل الميناء بالسّفينة وهم يحملون الأسلاب الثقيلة، كصناديق وخزائن الذهب وجرار النبيذ، فوق رؤوسهم أو على أكتافهم السمر. كان رئيس السّفينة والحرّاس الوندال يرون العبيد بطيئين، مهما بذل أولئك من جهدٍ وسرعة في تنفيذ ما عهد إليهم، ولذا كانوا يعمدون إلى السياط فيلهبون بها ظهورهم في كلّ مرّة لكي يحثّوهم على الإسراع أكثر. فجأة، توقّفت العربةُ الأخيرة أمام السّفينة. كانت تلك العربة على وجه التحديد هي ما أنفق الشيوخ والصبي ليلتهم في تعقّبها لأنّها كانت تحملُ ببساطة شمعدان الهيكل.

(37) كامبانيا، مدينة تاريخية قديمة وهي تشكل الآن أحد الأقاليم العشرين المكونة للتراب الإيطالي

ورغم أنّ حمولتها كانت ما تزال مغطاة بالقش والأقمشة المشمّعة، إلا أنّ الشيوخ راحوا يصوّبون إليها نظراتهم الحارقة، ورعشة من نفاد صبر تهزّ أوصالهم، وقد وقر في أذهانهم أنّهم سيرون المينوراه. لقد شعروا في قرارة أنفسهم بأنّ اللحظة الحاسمة أزفت، وأنّ المعجزة يجب أن تحدث في تلك اللحظة، وإلاّ ضاع الشمعدانُ إلى الأبد.

في غضون ذلك، كانت نظرات الصبيّ منصرفة تمامًا عن متابعة رفاقه، إذ فتنه البحر الذي كان يراه للمرّة الأولى في حياته، ومن ثمّة راح يتطلّع بإعجابٍ إلى تلك المرآة اللانهائية بلونها الأزرق المنير وهي تأخذ في الانعطاف حتّى تصير خطًا رفيعًا عند الأفق، حيث تلامس الأمواج السّماء، وقد وقر في قلبه أنّ ما يراه أمامه من فضاء هائل هو أكثر ضخامة من القبّة السماوية التي تمتلئ بالنجوم في الليل. كما تابع بمرحٍ حركة الأمواج وهي تلاعب بعضها، وعاين كيف كانت تتلاحق وتتصادم وتقفز الواحدة منها على الأخرى قبل أن تفرّ منها وهي تطلق ضحكةً عابثة، مخلّفة وراءها خيطًا من الزّبد، ثمّ تتشكّل من جديد. كانت تلك الحركة المرحة تبعثُ في قلبه بهجة لم يعرفها قطّ داخل زقاق حيّه الفقير الضيّق المظلم، حتى إن صدره الصبياني النحيل طفق ينتفخ بعنفٍ كأنّه يرغب في أن يتسع أكثر ليشمل بالهواء والفضاء، ويمنح قلبه اليهودي الخائف فرصة تشرّب كلّ ذلك الفرح بالكامل. في تلك اللحظة، شعر برغبة عجز عن مقاومتها، رغبة كانت تدفعه، وقد بلغ منه الفرح مبلغه، إلى الاقتراب من الماء لعلّه يضمّ بذراعيه الصغيرتين قطعةً من ذلك اللامتناهي. نعم، كان يشعرُ، وقد أخذ بكلّ تلك الأعاجيب وكلّ ذلك النور، بسعادة لم يعرفها قلبه قطّ من قبل، بل وكان يشعرُ بالأمان في حضرة البحر، وأنّه صارَ حرًّا بلا هموم، بينما تتابع عيناه حركة النوارس وهي تصعد أو تنزل مثل قذائف بيضاء، أو حركة الريّح وهي تنفخُ بنعومة في أشرعة السفن الجميلة! فجأة، وبينما كان يرخي رأسه إلى الوراء، مغمضًا

عينيه، لكي يعبّ الهواء المنعش المالح بعمقٍ، طفرت في ذهنه تلك الجملة التي سمعها ليلًا: «في البدء خلق الله السماوات والأرض»، ولأوّل مرّة، شعر بأنّ اسم الربّ، وقد كان سمعه من والديه ومن الحكماء للمّرة الأولى ليلة أمس، ممتلئٌ بالمعاني وبالحقيقة.

غير أنّ صرخةً أطلقها الأحد عشر شيخًا في وقت واحد، جعلته ينتفض ويعود إلى رفاقه على الفور. ففي تلك اللحظة، رفع العبيد البربريون الأقمشة المشمّعة عن حمولة العربة الأخيرة، وما كادوا ينحنون عليها ليخرجوا تمثالاً فضيّا لهيرا[38]

كان يزنُ مئات الأرطال، حتّى عمد واحد منهم إلى الشمعدان فدفعه بقدمه في خشونة بالغة، لأنّه كان يعيق حركته، فسقط حينئذٍ على الأرض وراح يتدحرج في الوحل قبل أن يستقرّ أسفل العربة. وأمام تدنيس ذلك الرّمز المقدّس الذي وقّره النبيّ موسى، وباركه أخاه هارون، وتزيّنت به مائدة الربّ في هيكل سليمان، اندفع صراخٌ مرعوبٌ من حلوق الشيوخ. فرفع العبيدُ السود رؤوسهم حينئذٍ وراحوا يتطلعون بفضول إلى أولئك الشيوخ الأغبياء الذين كانوا يمسكون بأذرع بعضهم بعضًا، مشكلين ما يشبه الحلقة البشرية المتفجّعة، ويطلقون صرخات حادّة رغم أن أحدًا لم يؤذهم. لكنّ سوط أحد الحرّاس ألهب أجسادهم العارية، فانزلقت أياديهم بإذعانٍ داخل قشّ العربة، وأخرجوا شاهدة قبر رخاميّة كان انعكاس نورها يكاد يخطف الأبصار، فتمثالًا ضخمًا لفوا الحبال سريعًا حول عنقه وقدميه ورفعوه إلى سطح السفينة كما ترفع لحوم المجازر. وحدها المينوراه الخالدة ظلّت راقدة أسفل العربة، نصف مخفيّة بإحدى العجلات. أمام ذلك المشهد، ارتجف الشيوخ، وكانوا ما يزالون يمسكون بأذرع بعضهم بعضًا، وهزّهم أمل جماعيّ في أن يغفل اللصوص

(38) بحسب الميثولوجيا الإغريقية، هي زوجة زيوس وأخته، وربة الزواج.

المتعجّلون عن أمر الشمعدان، ومن يعرف، لعلّهم لا يرونه من الأساس، فتحدث معجزة الخلاص في اللحظة الأخيرة.

لكن أحد العبيد لمح الشمعدان، فانحنى عليه والتقطه ثمّ ثبّته فوق ظهره، قبل أن يصعد به الجسر. وأمام أنظار الشيوخ، راح الشمعدان يلمع ويشعّ ويتوهّج تحت أشعّة الشمس حتى إنّه بدا أكثر اشراقًا من النهار نفسه. ولأول مرة في حيواتهم، رأى الشيوخ الأداة المقدّسة التي فقدها شعبهم. ولكن، لسوء حظهم، ها هو رمزهم العزيز يتهيّأ ليغادرهم إلى الأبد لحظة تعلّقت به أبصارهم.

كان العبد الأسود قد أسند الشمعدان الذهبيّ فوق كتفيه العريضتين، وراح يحثّ خطواته فوق المعبر الخشبي المتهالك، عندما ركض الشيوخ في اتجاه الجسر دون أن يفلتوا أيدي بعضهم بعضًا كأنّهم مجذوبين بقوّة خارقة. ففي قرارة أنفسهم كانوا يدركون أنه بعد خمس خطوات أو أربع ستختفي المينوراه إلى الأبد. كانت الدموع تغرق عيونهم، والخوف يبلبل كلماتهم واللعاب يسيل من أفواههم، وهم يتقدمون مترنّحين، زائغي النظرات، ممدودي الشفاه، مثل مجموعة من السكارى، لكي يطبعوا، على الأقل، قبلة ورعة أخيرة على رمزهم الحبيب.

كان الحاخام أليعاز، هو الوحيد من بينهم الذي حافظ على رباطة جأشه وسط كلّ ذلك الحزن. ومع ذلك، ضغط بشدّة على يد الصبيّ الصغير حتى كاد الأخير يصرخ وقال له:

-انظر! انظر! ستكون آخر من يرى شمعداننا! ستشهد أنّهم أخذوه منّا، ستشهد أنهم سرقوه منّا!

لم يفهم الصبيّ تلك الكلمات لكنّه أحسّ، في أعماق قلبه، بما كان الشيوخ يعانونه وحدس أن ظلمًا أُرتُكِب بحقّهم، فاستولى عليه حينئذ غضب صبيانيّ شديد، ودون أن يدرك ما كان يفعل، حرّر يده من يد الحاخام، وهرع في إثر العبد الأسود، الذي كان يواصل صعوده على الجسر مترنّحًا تحت ثقل حمولته. لا، يجب ألا يحمل ذلك الغريبُ الشمعدان. وعلى ذلك النحو، اندفع الصبيّ دون تفكير نحو العملاق لكي ينتزع منه فريسته.

كانت الصدمة المباغتة من الشدّة بحيث ترنّح العبد المثقل بحمولته وفقد توازنه. صحيح أنّ صبيًا صغيرًا هو من تشبّث به، لكنه كان في واقع الأمر يكافح من أجل الحفاظ على توازنه فوق اللوحة الخشبية الضيّقة المتأرجحة. ولذا اختلّ توازنه ما أن تشبث به الصبيّ وسقط في الفراغ جاذبًا معه الطفل. وفي اللحظة نفسها، أفلت الشمعدان من يده فسقط بكل ثقله على ذراع الصبي اليمنى فشعر الأخير بآلام مبرحة حتّى خيل إليه أن عظم ذراعه ولحمه سُحقا سحقًا وأطلق صرخة تمزّق نياط القلب، غير أنها ضاعت وسط حالة الصراخ الجماعيّة. في واقع الأمر، كان الجميع يصرخون في الوقت نفسه: الشيوخ من الفزع وقد رأوا المينوراه تتدحرج على الأرض وتدنّس للمرّة الثانية، والوندال، وقد كانوا يقفون عند الجزء العلوي من السفينة، من الغضب.

أسرع أحد الحرّاس ليفرّق مجموعة الشيوخ، وقد كانوا ما يزالون يصرخون، بضربات من سوطه، بينما نهض العبد الأسود من سقطته، وقد استشاط غضبًا، ليدفع بقدمه الطفل المتألّم، ثمّ أعاد تحميل الشمعدان فوق كتفيه، وصعد مسرعًا، مثل أيّ لص، إلى السفينة.

في غضون ذلك، لم ينتبه الأحد عشر شيخًا إلى الطفل بنيامين، ولم يلاحظوا أنه كان يتلوى على الأرض باكيًا، لأنهم لم يكونوا ينظرون إلى الأسفل ببساطة. كانت عيونهم مثبتة على الشمعدان وهو يصعدُ الجسر الخشبيّ محمولًا فوق ظهر العبد، رافعًا أكوابه السبعة إلى السماء، كأنّه قربان، واعتراهم الاضطراب وهم يشاهدون أولئك الأغراب يمسكون بالذخيرة المقدّسة بلا مبالاة ثمّ يلقون بها حيث تتكوّم بقيّة الأسلاب.

فجأة، دوّت صافرة حادّة في الفضاء، فأطلقت سلسلة المرساة قرقعة عنيفة، قبل أن يظهر أربعون مجذافًا من فتحات عنبر السفينة الخفّي، حيثُ يتوّزع الجذّافون على مصاطب مثبّتة إلى جانبيه، وتشرع في ضرب الماء بحركة قوّية منتظمة. كانت السّفينة تغادر في تلك اللحظة، دون سابق إنذار، مخلّفةً وراءها موجةً من الزّبد، وراحت تنزلق بعيدًا فوق سطح الماء، مطلقةً ضجيجًا طفيفًا، حتى إنّ هيكلها البنّي بدا كأنه كائن حيّ وهو يتمايل فوق الأمواج، صعودًا ونزولًا. وعلى ذلك النحو، خرجت السّفينة من الميناء وراحت تشقّ عباب البحر في خطّ مستقيم، تاركةً أشرعتها للريّاح تنفخُ فيها.

شاهد الأحد عشر شيخًا السّفينة وهي تختفي، فأمسكوا بأيدي بعضهم بعضًا واعتراهم الاضطراب من جديد. ودون أن يفصحوا لبعضهم عمّا يجيش في صدورهم، كانوا يأملون في قرارة أنفسهم في حدوث المعجزة، غير أن السّفينة المسيّرة بالمجاذيف والمدفوعة بالريّاح، واصلت شقّ طريقها في البحر. وعلى ذلك النحو، راح رجاؤهم يخفت رويدًا رويدًا ويتوه في بحار أحزانهم، كلّما تضاءل هيكل السّفينة في البعيد، حتّى إنّ الدموع عتّمت أعينهم حين صار هيكلها أصغر من جناح نورسٍ.

فجأة أدركوا، والمدى الأزرق يبتلع السّفينة، أنّ آمالهم قد تحطّمت تماماً. فها هم قد فقدوا الشمعدانَ إلى الأبد وها هو ذا قد عاود رحلاته البعيدة الخالدة!

عندما أبعد الشيوخ أبصارهم أخيرًا عن البحر، تذكروا الصبيّ الملقى على الأرض، حيث سقط الشمعدان على ذراعه فكسرها بعنف. كان ما يزال راقدًا هناك يتلوّى من الألم ويئنّ في بؤس، فعمدوا إلى الصبيّ المصاب فرفعوه من على الأرض ثمّ وضعوه على نقّالةٍ عثروا عليها مصادفةً هناك. كانوا جميعًا يشعرون بالخجل لأن صبيًّا صغيرًا فعل ما لم يتجرّأ على فعله أيّ واحدٍ منهم، هم البالغون. وكان أبثاليون يخشى -على وجهٍ خاصّ- تلك اللحظة التي سيعيدُ فيها حفيده العاجز إلى زوجته وزوجة ابنه. فجأة، تكلّم الحاخام أليعاز، الطاهر الهادئ، فقال يواسيهم: «لا تنتحبوا ولا تشفقوا عليه! تذكروا ما جاء في الكتاب المقدّس. لقد أمات الربّ الرجل الذي أمسك التابوت بيده، لأنّه حرّم علينا أن نلمسَ الذخائر المقدّسة بأيدينا. ومع ذلك، ها هو ذا قد عفا عن هذا الصبيّ فلم يضرب سوى ذراعه. ولعلّ الصبيّ يجد في هذه المعاناة بركةً، وقضاءً وقدرًا».

انحنى بعد ذلك على الطفل المتوجّع وقال له بحنانٍ: «لا تقاوم ما تشعر به من آلام وإنّما خذها إلى داخلك. إنّ هذه الوجيعة هي أيضًا إرثٌ. ففي المعاناة يعيشُ شعبنا، ومن بؤسه يستمدّ قوّته الخلّاقة. لقد حدث لك أمرٌ غير مسبوق: لقد لمست الذخيرة المقدّسة بيدك، ومع ذلك لم يتأذّ منك إلاّ الجسد. لقد نجوت بحياتك يا بنّي. من يدري، لعلّ هذه الوجيعة، تصنعُ منك رجلًا مختارًا، ولعلّ فيها معنى خفي يخصّ مصيرك».

رفع الصبيّ نحوه نظرة ثابتةً مفعمة بالإيمان. كان ما أثاره العجوز فيه من مشاعر فخر أقوى من ألمه الممضّ، فصمت من فوره، ولم يسمح لأنّةٍ واحدة أن تغادر شفتيه، وهم يحملونه بذراعه المكسورة حتّى بلغوا به عتبة المنزل الأبويّ.

***

بعد تلك الليلة المأساوية مرت علر روما سنوات حافلة بالإضطرابات، وجرت فيها أحداث كثيرة في جيل واحد، ماكان يحدث عادة بعد مضي سبعة أجيال.

في تلك الفترة، تداول على عرش روما أربعة أباطرة، هم أفيتوس وماجوريان وليبيوس سيفيروس وأنثيميوس، وكان كلّ واحد منهم لا يكمل حكمه فإما أن يخلع أو يقتل. كما استولت قبائل جرمانية أخرى على المدينة ونهبتها، وشهدت روما عادة جديدة هي تنصيب أباطرة وخلعهم (في فترة جيل واحدٍ)، حتّى جاء عهدُ آخر القياصرة، وهم غليكيروس ويوليوس نيبوس ورومولوس أوغسطس، الذين واجهوا أشرس مقاتلَيْن شماليَيْن، هما أودواكر وثيودوريك اللذان أنهيا حكم القياصرة وأسسا إمبراطورية القوط. وحتّى تلك الإمبراطورية التي أريد لها أن تكون خالدة، انهارت هي الأخرى واختفت في الجيل نفسه، رغم أنها كانت تدارُ بانضباط حديدي. ولقد استمرّت شعوب الشمال في تدفّقها على روما القديمة، بينما كانت روما أخرى جديدة تُبنى وراء البحار، هناك في بيزنطة، حتى لقد بدا الأمرُ كأنّ المدينة الألفيّة القديمة المشيّدة على ضفاف نهر التيبر قد حُرمت من السلام والهدوء نهائيًّا، منذ أن غادرها الشمعدان ليلة رحيل الوندالِ من ميناء «بورتا بورتونيسس».

في غضون ذلك، كان الموتُ قد اختطف، منذ فترة طويلة، الأحد عشر شيخًا الذين شيّعوا الشمعدان للمرّة الأخيرة. ومات أبناؤهم أيضًا واشتعلت رؤوس أحفادهم شيبًا. ولم يبق حيًّا شاهدًا على تلك الليلة الحاسمة سوى بنيامين، حفيد أبثاليون. كان الصبيّ قد كبر وصار مراهقًا، ثمّ كبر المراهق وأصبح كهلًا، وأخيرًا صار الكهلُ عجوزًا، شيّع سبعة من أبنائه إلى القبر، ومات حفيدٌ له يوم أحرقت العوّام الكنيس اليهودي تحت حكم ثيودوريك. هو وحده، بذراعه التّالفة، من ظلّ حيّا، مثل شجرة قوّية تقفُ وحيدة في غابة دمّرت العاصفة جذوع أشجارها. كان ذلك الجدّ يقاومُ الزمن وهو يشاهد الأباطرة تموت والإمبراطوريات تنهار، حتّى بدا كأنّ الموت يخشاه. أمّا اسمهُ فكان معظّمًا بين يهود الأرض بل ويكادُ أن يكون مقدّسًا. فبسبب ذراعه التّالفة، أطلقوا عليه اسم بنيامين «مارنفشاخ»، وتعني حرفيّاً، بنيامين

الذي اختبره الربّ بشدّة. وكانوا يوقّرونه أكثر من أيّ أمرٍ آخر، لأنه في نظرهم كان آخر من رأى بعينيه شمعدان موسى، سراج هيكل سليمان، المينوراه التي كانت تذبلُ في ظلمات خزائن الوندال محرومةً من النور.

كان أوّل ما يفعله تجار ليفورنو وجنوة وساليرنو وماينتس وترير عندما يقدمون إلى روما، هو زيارة الرجل العجوز الذي رأى شمعدان النبي موسى وسراج هيكل سليمان، فيركعون أمامه وكأنّهم يركعون أمام أيقونة مقدّسة، ويتطلّعون بجزعٍ إلى ذراعه المشلولة ثمّ يمدون أناملهم لكي يلمسوا تلك اليد التي لمست شعلة الربّ. ورغم أنّهم كانوا يعرفون جميعًا ما حدث في تلك الليلة لبنيامين مارنفشاخ – ففي ذلك الزمن كانت الكلمة تنتشرُ أيضًا في العالم كما هو الحال مع الكتابة اليوم– كانوا لا يفوّتون الفرصة لكي يطلبوا منه أن يسرد عليهم رحلته. وكان هو، بصبر لا ينفد،

يقصّ عليهم قصة شحن الشمعدان على سفينة الوندال، وعندما يصل في حديثه إلى ما كان قد تنبّأ به له الحاخام أليعاز، الطاهر الهادئ، ذلك الذي يرقد جسدهُ منذ سنوات طويلة تحت الأرض، يبرق في وجوههم ضياء كان يبدو كأنّه يخرج من لحيته الكثّة. كان يحثّهم دومًا على ألّا يفقدوا شجاعتهم، لأنّ رحلة الرمز المقدّس لم تنته بعد. كان يقول لهم إنّ الشمعدان سيعودُ يومًا ما إلى أورشليم، وستنتهي حينئذٍ محنة تيههم، فيجتمع اليهود من جديد حول المينوراه المسترجعة. وما إن يسمعوا ذلك منه حتّى ينفضّوا من حوله وقد شعروا بالارتياح، متضرّعين إلى الربّ أن يبقيه وسطهم لسنوات طويلة أخرى لكي يواسيهم، هو الشاهد الأخير الذي رأى ذخيرة الهيكل المقدّسة.

كان بنيامين الذي اختبره الربّ، صبيّ تلك الليلة البعيدة، قد بلغ سبعين سنة، ثمّ ثمانين، فخمس وثمانين، وأخيرًا سبع وثمانين سنة، وتقوّس كتفاه رويدًا رويدًا تحت وطأة السّنين واضطرب بصره، وصار يشعرُ بالإرهاق أحيانًا مع انتصاف النّهار، ومع ذلك لم يكن ثمّ يهوديّ واحد في روما يريد أن يصدّق أن للموت سلطانًا على ذلك العجوز، لأنّ وجوده بينهم هو برهان على وقوع حدثٍ عظيم. لقد كان من المستحيل بالنسبة إليهم أن يتخيّلوا، ولو للحظة، أن تلك العينين اللتين شاهدتا شعلة الربّ يمكنُ أن تنطفآ قبل أن تشهدا عودة المينوراه، بل إنّهم كانوا يعدّون وجوده بينهم دليلًا على الإرادة الإلهية. ولذا كان اسمه يتردّدُ في أعيادهم وطقوسهم الدينية. كما كان الأكبر من بينهم سنّا ينحنون أمامه توقيرًا عندما يعبرُ الطريق وهم يردّدون آية البركة، أو يحجزون له موضع الصدارة عندما يجتمعون في مجلس فرحٍ أو عزاء.

وعلى ذلك النحو، اجتمع يهود روما، في ذلك اليوم الموافق لليوم التاسع من شهر آب[39]، وقد حجزوا كالمعتاد موضع الصدارة لبنيامين مارنفشاخ، كدأبهم مع أكبر رجال المجتمع اليهودي سنًّا وأرفعهم مقامًا. كان ذلك اليوم يوافق ذكرى سيّئة لدى اليهود قاطبة، وهي ذكرى تدمير الهيكل وتشتيت آبائهم في كلّ أنحاء العالم. وعلى غير العادة، لم يجتمعوا في الكنيس، بعد أن دنّسهُ الرّعاع الغاضبون مؤخّرًا، بل فضّلوا أن يلتقوا خارج المدينة في ذلك اليوم الحزين، وأن يكونوا إلى جانب موتاهم، في تلك البقعة حيث دفن آباؤهم، لكي يتبادلون الشكوى ممّا كانوا يعانونه من نفي وتيه. هناك، داخل المقبرة، اقتعد بعضهم الأرض بين القبور فيما فضّل بعضهم الآخر الجلوس فوق الصخور. وبينما كانوا يتأملون شواهد القبور المزدانة بالرموز (كالأيادي المتشابكة، وشارات الكهنة وأباريق الوضوء التي يستخدمها اللاويون[40] والأسود ونجوم داوود) ويقرأون فوقها أسماء أسلافهم والعبارات المشيدة بمآثرهم، شعروا بأنّهم قريبون منهم في تلك اللحظات، هم الذين ورثوا عنهم المحن نفسها. كانت توجد أيضًا منحوتة للشمعدان السباعيّ مثبتة على نحو عموديّ فوق أحد شواهد القبور، كأنها تشهد بأنّ الرجل الراقد تحتها كان حكيمًا ونورًا وسط الشعب. تحت تلك الشاهدة تحديدًا، جلس بنيامين بين ذويه، معفّر الرأس بالرماد وممزّق الملابس كسائر اليهود الذين بدوا كأشجار صفصاف وهم يتمايلون بأجسادهم فوق مدّ معاناتهم الأسود.

(39) يدعى صوم التاسع من آب على اسم التاريخ العبري الذي وقع فيه، وهو يشير إلى اليوم الذي دُمّر به الهيكلان اليهوديان، بفارق 550 سنة.

(40) من سبط لاوي أحد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر

تقدّم النّهار فمالت الشمس وراء أشجار الصنوبر والسرو. رفرفت الفراشات حول اليهود المقرفصين كجذوع الأشجار المنخورة، وغامرت اليعاسيب، بأجنحتها القزحية، فحطّت دون خوف فوق أكتافهم المتهدّلة، وجرت الخنافس بين أقدامهم فوق العشب الريّان، فيما راح نسيم معطّر يحرّك أوراق الأشجار ذات اللون الأصفر الفاقع. ورغم أنّ الشفق الناعم الأخاذ بدأ يعدّ العدّة ليأخذ مكان ضوء النهار، ظلّ اليهود غارقين في حزنهم، بل إنّ أفئدتهم لم تتوقّف البتة عن تذكر ما حلّ بهم من إذلال ضجّت به حلوقهم في عويلٍ جماعيّ. في ذلك اليوم، لم يأكلوا أو يشربوا شيئا حتى إنهم لم يلقوا بالًا لضوء النّهار الآفل. كلّ ما كانوا يفعلونه هو تلاوة مراثي تدمير الهيكل وخراب أورشليم. كانوا يحفظون كلمات ذلك الإنشاد عن ظهر قلب، كلمات كانت قد اخترقت أفئدتهم منذ زمن طويل كأنّها سيخ محميّ، لكنّهم، مع ذلك، راحوا يكرّرونها دون توقّفٍ، لكي يهيّجوا معاناتهم أكثر ويشعروا بها وهي تحطّم قلوبهم. في واقع الأمر، كان كلّ ما يريدونه هو الشعور بالمعاناة في ذلك اليوم الكئيب، وأن يستزيدوا من حزنهم وكرب منفاهم، بتذكّر أحزان موتاهم وآلامهم، وتبادل القصص عن مصير شعبهم وعذابات ماضيه. والحقّ أنّهم لم يكونوا الوحيدين الذين يتلفون أنفسهم في الحزن على ذلك النحو، ففي كلّ مكان في العالم، وحيثما وُجد تجمّع لهم، كان اليهود يقرفصون قرب قبور أسلافهم أو يجلسون بينها، ممزقي الملابس ومعفّري الرؤوس بالرّماد، وينشدون في تلك الساعة المراثي نفسها من سفر إرميا[41]، مراثي عن قصة سقوط أورشليم، ابنة الربّ، التي صارت أضحوكة بين الأمم، لأنّهم كانوا يعرفون أنّ ما من رابط على وجه الأرض قادر على

(41) نبي من أنبياء بني اسرائيل

توحيد قلوبهم بخلاف تلك الشكاوى المتفجّعة، شكاوى انتزعها منفاهم الجماعيّ من صدورهم انتزاعًا.

وبينما هم كذلك مجتمعون، يصلون، ويئنون ويمزقون أفئدتهم بذكرى معاناتهم، لم يفطنوا إلى اختفاء الشمس وراء الأفق، وتوهّج جذوع أشجار الصنوبر والسرو، وكأنها مضاءة بنور داخلي، حتّى إنهم لم ينتبهوا إلى أنّ يوم التاسع من آب، يوم الحداد الكبير، وصل إلى نهايته وأنّ ساعة الصلاة الأخيرة قد حانت. في تلك اللحظة، أصدرت بوّابة المقبرة الصّدئة صريرًا مفاجئًا. عندئذٍ، انتبهوا إلى دخول شخص ما إلى المقبرة، لكنّهم لم يشغلوا بالهم، بل مضوا إلى صلاتهم، بينما انتحى الشخص الغريب جانبًا ووقف ينتظر في صمتٍ ريثما يفرغوا من صلاهم.

***

رفع رئيس الجالية عينيه في اتجاه الوافد وحيّاه قائلًا:

-مباركٌ هو الذي يأتي إلينا! سلامٌ عليك، أيها اليهودي!

فردّ الغريبُ:

-مباركون هم هؤلاء الذين هنا!

سأله الرئيس:

-من أين قدمت ومن أيّ جماعة أنت؟

– جماعتي لم تعد موجودة. لقد وقعت أحداث جسامٌ هزّت قرطاج، فهربتُ منها على متن إحدى السّفن وقدمت إلى هنا. وصورة الحال أنّ الإمبراطور جستنيان[42] كان قد أرسل جيشًا من بيزنطة لمواجهة الوندال، فتمكن بيليساريوس[43]، قائد جيوشه، من الاستيلاء على قرطاج، معقل القراصنة، وأسر ملك الوندال بعد أنّ دمّر مملكته. ولقد علمتُ أنّ الحرب وضعت أوزارها هناك وأنّ بيليساريوس انطلق إلى بيزنطة حاملًا معه كلّ ما نهبه أولئك اللصوص على مدى سنوات طويلة.

عندما أنهى حديثه، تطلّع اليهود إليه بلا مبالاة. لم يقولوا شيئًا أو يتحرّكوا من مجالسهم. ففي نهاية الأمر، ما الذي يعنيهم من أمر قرطاج وبيزنطة؟ أليس الأدوميين[44] والعماليق[45] أعداء منذ فجر التاريخ؟! ألم تستمرّ تلك الشعوب الوثنية في احترابها بغباء، فمرة ينتصر هذا ومرّة ينتصر ذاك؟ في تلك الحروب، لم يحدث قطّ أن انتصر العدلُ، فلماذا يهتمون إذن؟ إن قلوبهم لا تهتّم بأمر قرطاج أو روما أو بيزنطة، بل تهفو إلى مدينة واحدة هي أورشليم!

---

(42) الإمبراطور جستينيان الأول (482، 483 – 14 نوفمبر 565) كان إمبراطوراً رومانياً شرقياً (بيزنطياً) حكم منذ أغسطس عام 527 حتى وفاته في نوفمبر 565. اشتهر بإصلاحه الرمز القانوني المسمى قانون جستينيان خلال لجنة تريبونيان، والتوسع العسكري للأرض الإمبراطورية أثناء عهده، وزواجه وشراكته مع الإمبراطورة ثيودورا. يعرف أيضاً باسم «الإمبراطور الروماني الأخير."

(43) فلافيوس بيليساريوس (500 – 565 م) كان أحد أعظم الجنرالات الرومان الشرقيين. كان مفيداً لمشروع الامبراطور جستنيان الطموح لإعادة احتلال جزء كبير من أراضي حوض البحر الأبيض المتوسط التي كانت تتبع الإمبراطورية الرومانية الغربية السابقة.

(44) اسم قديم للمنطقة الواقعة بين جنوب فلسطين وخليج العقبة سكنها الأدوميون أحفاد عيسو.

(45) شعب من أقدم شعوب سورية الجنوبية ومن ذرية عيسو، وكانوا يقيمون في البدء قرب قادش جنوب غربي حمص. وكانوا ينتشرون في فلسطين عند قدوم العبرانيين من مصر.

كان بنيامين مارنفشاخ -الرجل الذي اختبره الربّ بشدّة- هو الوحيد الذي رفع رأسه وخاطب الغريب قائلاً بنبرة قويّة:

-والشمعدان؟

-لم يصب بأذى، لكنّ بيليساريوس استولى عليه. ولقد سمعتُ أيضًا أنه نقله إلى بيزنطة مع بقيّة الغنائم.

في تلك اللحظة، انتفضوا جميعًا، وقد أدركوا مغزى السؤال الذي طرحه بنيامين: نعم، ها هو ذا الشمعدان المقدّس سيستأنفُ ترحاله مرّة أخرى. كان للخبر تأثيرُ نيران المشاعل في ديجور حزنهم، فنهضوا فجأة، متجاوزين القبور ثمّ أحاطوا بالغريب وهم يبكون وينتحبون:

-وَاحَسْرَتَاه!... حمله إلى بيزنطة! ...سيهاجر مجدّدًا! ...سيشقُّ البحر!... سيشرعون في جرّه بانتصارٍ كما فعل تيتوس الملعون! ...لطالما أخذ إلى أراضٍ غريبة...ونحن؟ متى سنراه في أورشليم؟! ... وَاحَسْرَتَاه!... إنّ النّحس يطاردنا!

كان ما سمعوه أشبه بسيخٍ محميّ غرزه أحدهم في جرحٍ قديم، فدارت رؤوسهم وأعتمت أعينهم من القلق والخوف: ألا يعني انتقال ذخائرهم المقدّسة من مكان إلى آخر أنّ عليهم هم أيْضًا أن ينتقلوا معها إلى منفى آخر، بل وأن يبحثوا عن وطنٍ جديد لم يكن يوماً وطنهم؟ أليس ذلك ما كان يحدث معهم منذ تدمير الهيكل؟ أليس بسبب ذلك اضطربت حيواتهم؟ ها هو ذا وجعٌ آخر قد جاء ليُضاف إلى أوجاع الماضي ويثقل عليهم بقسوة. طفقوا جميعًا ينتحبون في تلك اللحظة، وضجّت

أصواتهم بالتأوّهات والصراخ، فجفلت العصافير المسالمة الجاثمة على الصخور القديمة وطارت مذعورة من صراخ أولئك الرجال المتفجّعين.

وحده الجدّ بنيامين، ظلّ جالسًا على الصخرة المكسوّة بالطحالب، محافظًا على صمته، غير آبهٍ لضوضاء البقيّة وشكاويهم، وعلى نحوٍ غير إراديّ شبك يديه مبتسمًا كأنّه في حلمٍ، حتى إنّه بدا في جموده على صورة المينوراه المحفورة على شاهدة القبر التي تواجهه تمامًا. في واقع الأمر، بدا الأمرُ وكأنّ خيالًا قديمًا قادمًا من صبا ذلك العجوز قد أضاء وجهه المتغضّن على حين غرّة حتى إن تجاعيد وجهه اختفت، واتخذت شفتاه مظهرًا أكثر نعومة من ذي قبل، واتسعت ابتسامته على جسده كلّه الذي حافظ على وضعيّته الجامدة المائلة. في نهاية الأمر، انتبه واحدٌ من الموجودين إلى العجوز وشعر بالخجل الشديد لأنّه عجز عن السيطرة على نفسه أمامه، فتوقّف عن النّواح قبل يلمس برفق كتف جاره، توقيرًا للعجوز. وواحدًا بعد آخر، توقفوا عمّا كانوا يفعلون وطفقوا يحملقون في العجوز الذي كان لابتسامته تأثير البلسم المهدئ لمعاناتهم. وسرعان ما غرق المكانُ في الهدوء، فبدا حالهم أشبه بحال الموتى الذين كانت قبورهم تنتصب من حولهم تحت ضوء الشفق. ولقد كان من شأن صمتهم المطبق أن نبّه بنيامين إلى حقيقة أنّهم يتطلّعون إليه في تلك اللحظة، فنهض بصعوبة من فوق الصخرة التي كان يجلس عليها، وعلى الرغم من إرهاقه الشديد، بدا لهم كأنّه اكتسب قوّة جديدة، وهو يقفُ بينهم على ذلك النحو، بلحيته الفضية الكثة وشعره الأبيض المجعّد المنسدل بتوهّجٍ من تحت كبّته[46] الحريرية الصغيرة. في

(46) الكِبة أو الكيباه وجمعها كيبوت هي غطاء رأس صغير ومستدير الشكل، يرتديه اليهود الأرثوذكسيون طوال الوقت توقيرًا لله، كما تأمر بلك أحكام شريعة الهالاخاه.

تلك اللحظة، انتابهم إحساسٌ لم يألفوه من قبل. لقد شعروا جميعًا بأن بنيامين، الرجل الذي اختبره الرب بشدّة، هو مبعوث السماء إليهم.

فجأة تكلّم العجوز، بصوتٍ تقيّ موقع كأنّهُ في صلاة:

-إنّي أدركُ الآن لماذا تركني الربُّ حيًّا كلّ هذه السنوات. لطالما تساءلت لماذا ما تزال يداي قادرتين على كسر الخبز، ولماذا غفل الموت عنّي، أنا الرجل العجوز المرهقُ العاجز، أنا الذي لا رغبة له إلاّ في الرّاحة الأبديّة. الحقّ أقول لكم إنّ ما أثقل على شعبنا من آلامٍ لا حصر لها أحبطني حتّى إنّ ثقتي سئمت من كلّ شيء. بيد أني الآن أرى بوضوحٍ الواجب المحمول عليّ في هذه الدنيا. لقد سبق لي أن رأيتُ مبتدأ كلّ ذلك، وها هي النهايةُ اليوم تدعوني إليها.

كان يتحدَّث ساهمًا، فلم يقاطعه أحد، بل ظلوّا ينصتون بتوقير إلى كلماته المبهمة، إلى أن فرغ من كلامه، فسأله حينئذٍ رئيس الجالية بلطفٍ:

-ماذا ستفعل؟

-ما أحسبُ أنّ الربّ حفظ لي حياتي وبصري إلّا لكي أرى الشمعدان مرّة أخرى. ولهذا يجب أن أذهب إلى بيزنطة لعلّ العجوز ينجح فيما فشل في تحقيقه الصبيّ، ويتمكن من تحرير المينوراه. من يدري؟

اعتراهم شيء من الاضطراب الممزوج بالقلق حالما سمعوا كلماته وراحوا يرتجفون بانفعال. وإذ بدا لهم أنّه من المستحيل أن ينجح ذلك العجوز الهش في انتزاع الشمعدان المقدّس من أقوى إمبراطور على وجه الأرض، إلّا أن الاعتقاد في إمكان تحقق تلك المعجزة أغرى قلوبهم!

على أنّ واحدًا منهم لم يستطع منع نفسه من التساؤل، فقال بأسى:

-ولكن كيف ستتحمّل مثل هذه الرحلة العظيمة؟ لا تنسَ أنّك ستمضي ثلاثة أسابيع في البحر وفي قلب الشتاء! إنّي أخشى أنّك لست قويًّا بما فيه الكفاية للقيام بتجربة كهذه!

فردّ العجوز:

-نحن دوماً ما نكون أقوياء عندما يتعلّق الأمر بقضيّة مقدّسة! قديماً، عندما أخذني الشيوخُ معهم، كانوا يعتقدون أيْضًا أن الطريق ستكون شاقة على صبيّ مثلي، ورغم ذلك قطعتها معهم حتّى النّهاية. على أنّ ذلك لا يعني أني لن أحتاج إلى مرافق، فكم تعلمون سيشق عليّ الأمر قليلاً بسبب ذراعي المشلولة. نعم، سأحتاجُ إلى مرافق قوّي لكي يساعدني على تحمّل أعباء الطريق، على أن يكون شابّاً لتنتفع الأجيال القادمة بشهادته كما انتفعتم أنتم بشهادتي.

كذلك قال وطفق يتطلّع في الحضور، ويتفحّص الشبّان واحدًا بعد آخر، كأنّه يختبرهم، فارتجفوا من نظراته المتفحّصة التي كانت تخترقهم فتمسّ أعماق أعماقهم. في واقع الأمر، كان كلّ واحد منهم يرغب في أن يقع الاختيار عليه للقيام بتلك المهمّة، لكنّ لا أحد منهم جازف بالتطوّع من تلقاء نفسه، خجلًا من العجوز. فلبثوا ينتظرون قراره باضطرابٍ واضحٍ. وبعد برهة من الصمت، خفض العجوز رأسه وقد شعر بالارتباك وقال لهم:

-لا، لا أريد أن أختار. ليس لي أن أفعل ذلك. اقترعوا أنتم فيما بينكم، وليساعدني الربّ على معرفة من سيقع عليه الاختيار.

حالما قال ذلك، تفرّق الشبانُ ليجمعوا أوراق النباتات فطفقوا ينتزعونها من الأجمات الكثيفة المحيطة بالقبور، ثمّ قسموها إلى قطع متفاوتة الطول وزعوها فيما بينهم. وعندما أجروا القرعة، خرج السّهم على يواكيم بن جماليال، وهو شابٌّ ضخم قوي، في العشرين من عمره، يشتغلُ حدّادًا، لكنه لم يكن محبوبًا بين أبناء الطائفة بسبب جهله بالتوراة وطباعه الغليظة، فضلًا عن تلوّث يديه بالدّماء بعد أن قتل رجلًا سوريًّا، في مشاجرة، قرب نواحي سميرنا[47]، وهو ما اضطرّه إلى الهروب إلى روما كيلا يقبض عليه. بدا واضحًا أنّ الدهشة عقدت ألسن الجميع وإن لم يخفوا انزعاجهم من وقوع السّهم على ذلك المتهوّر العنيف بدلًا من أن يقع على شاب تقيّ صالح. غير أنّ العجوز لم يبالِ بذلك، بل اكتفى بإلقاء نظرة خاطفة على يواكيم، الشاب المختار، الذي خرج في تلك اللحظةِ من الصفّ، وأمره قائلًا:

-جهّز كل ما يلزم. سنغادرُ غدًا مساء.

وفي اليوم الموالي ليوم التاسع من آب، سادت حالة من الهرج المحموم داخل الحيّ اليهوديّ، فترك اليهود كلّ ما كانوا فيه من أعمال، وراحوا يجمعون المال ويجلبونه، ولم يتخلّف عن ذلك المسعى لا الفقراء الذين كانوا يقترضون بالرّهن، ولا حتّى النساء اللائي قدّمن أقراطهنّ وحليّهن، لا سيّما وقد تعاظمُ الاعتقادُ لديهم لا في قدرة بنيامين على تحرير المينوراه من سجنها الجديد فحسب، ولكن في إمكانية نجاحه أيضًا في إقناع الإمبراطور بأن يسمح لهم بالعودة إلى أرضهم مع ذخائر الهيكل المقدّسة،

(47) سميرنا هي إزمير الحالية، مدينة تقع غرب الأناضول بتركيا.

كما حدث الأمر مع أسلافهم في عهد الامبراطور الفارسي كورش[48]. زد على ذلك، كان الرّجال يصلون النهار بالليل في توجيه الرسائل إلى رؤساء المجامع اليهودية بالشرق، في سميرنا وكريت[49] وسالونيك[50] وطرسوس[51] ونيقية[52] وطرابزون[53]، رسائل طلبوا فيها منهم أن يوجّهوا وفودهم إلى بلاد الإمبراطور جستينيان ويجمعوا الأموال لكي يتحقّق خلاصهم المقدّس. كما راسلوا إخوتهم في بيزنطة وغالاطة [54]وطلبوا منهم تمهيد الطريق أمام بنيامين مارنفشاخ المنذور للقيام بأعمال جليلة. وانهمكت النساء في تجهيز الأغطية والوسائد لرحلة العجوز، فضلًا عن تحضير شتّى أصناف الأطعمة حتى لا تتدنّس شفتا ذلك الرجل الصالح بأيّ شيء نجس على سطح المركب.

في ذلك الزمن، لم يكن مسموحًا ليهود روما أن يركبوا الجياد أو العربات، لكنهم تدبّروا أمرهم واقتنوا عربة وضعوها خارج البوّابات لكيلا يشعر العجوز بالإرهاق في طريقه إلى الميناء. وأمام دهشتهم الشديدة، رفض بنيامين ركوب العربة مشدّدًا على رغبته في أن يقطع الطريق إلى ميناء بورتس على قدميه، كما قطعها وهو صبيّ هشّ، قبل أكثر من ثمانين سنة. صحيحٌ أنّ إصرار العجوز الأحمق على قطع الطريق نحو الميناء سيرًا على القدمين بدا لهم تهوّرًا محضًا، لكنّهم لم يستطيعوا إخفاء انبهارهم به

(48) قورش الكبير أو كورش أول ملوك فارس (560 – 529 ق م)، أحد أعظم ملوك الفرس الأخمينية الذي أثنت عليه كتب العهد القديم، بعد أن سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين وبذل لهم الأموال لتجديد بناء الهيكل ورد إليهم نفائس الهيكل المنهوبة التي كانت مؤمنة في خزائن ملوك بابل.

(49) هي أكبر الجزر اليونانية وخامس أكبر جزيرة في البحر الأبيض المتوسط.

(50) مدينة يونانية ومركز لبلدية تقع في شمال البلاد.

(51) مدينة تركية تقع جنوب البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

(52) مدينة إغريقية قديمة كانت تقع على ساحل الأناضول الغربي عند بحر مرمرة صار اسمها إزنيق حاليا.

(53) مدينة تركية تقع في شمال شرق تركيا على ساحل البحر الأسود.

(54) مدينة تركية

وهم يتطلّعون إليه. لقد بدا شخصًا آخر تمامًا، شخصًا قلبت مهمّته حاله من النقيض إلى النقيض، فاستردّت أطرافه كلّ عنفوانها، ودماؤه كلّ حرارتها، في قلب ذلك الليل، حتى إنّ صوته، وقد كان متكاسلًا رقيقًا في العادة، لاح لهم قويًّا متعاليًا، بل ويكادُ يكونُ غاضبًا، وهو يصرُّ على موقفه، ضاربًا عرض الحائط بما كانوا يظهرونه له من اهتمامٍ مبالغ فيه، فانتهى بهم الأمر إلى الإذعان إلى مشيئته بتوقيرٍ كبيرٍ.

في تلك الليلة، لازم يهود روما بنيامين مارنفشاخ، مختار الجالية، وقطعوا معه الطريق التي سارها أسلافهم من قبلهم وراء شمعدان الربّ. كانوا قد جهّزوا نقّالة أخذوها سرًّا معهم لكي يحملوا عليها العجوز في صورة ما إذا خارت قواه قبل الوصول إلى الميناء، لكنّ الأخير راح يتقدّم الجميع بإباءٍ. لم يكلّم أحدًا منهم، لأن روحه كانت في تلك اللحظة تحلّقُ في الماضي. كانت ذكريات طفولته البعيدة تتبدّى له بوضوحٍ متعاظمٍ مع كلّ منعطفٍ وكلّ حجر من أحجار الطريق التي لم يعد إليها قطّ منذ تلك الليلة المشهودة. نعم، كان كلّ ما يراهُ أمامه يذكره بما حدث قبل ثمانين عامًا، حتّى إنّ أذنيه راحتا تسترجعان أصوات رفاقه الموتى وكلماتهم وريح الليل الدافئة تدفعُ به إلى الأمام. نعم، هنا على اليمين، تذكر أنه رأى عمودًا من النار يتصاعدُ من منزل محترقٍ وهناك، قرب المعبر العسكري، تذكر أنّهم توقفوا جميعاً، والرّعب يكاد يمزّق أوصالهم، بعد أن هجم عليهم الفرسان النوميديون. تذكّر كلّ سؤال طرحه على الحاخام أليعازر، وتذكر كلّ إجابة تلقاها منه. وعندما بلغ الموضع الذي صلّى فيه الشيوخ صلاة الصباح، أخرج شال الصلاة وصندوق التيفيلين، ثم استدار إلى جهة الشرق، وتلا الصلاة نفسها التي تلاها آباؤه وأسلافه، صلاة كانوا قد اعتادوا على تلاوتها غريزيًّا، بعد أن تشرّبتها دماؤهم على نحو يكاد يكون خوارقيّا، وأورثوها إلى أبنائهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم، جيلًا بعد جيل.

وقف مرافقوه خلفه مندهشين وعاجزين عن فهم حركاته الغريبة. فعلى عكس زمن مسيرته الأولى، كان الطقسُ يكاد يكون خريفيّا، والنهارُ ما زال بعيدًا، وزد على ذلك، لم يكن ثمّة في السّماء ما يشيرُ إلى اقتراب بزوغ الفجر، فلماذا سمح ذلك الرّجل الصالح لنفسه أن يقيم صلاة الصباح في ذلك الوقت؟ كان الأمرُ مخالفًا للأعراف ويتضاربُ مع تعاليم الشريعة والتوراة، إلا أنّهم لم يفصحوا عن ذلك، بل ظلوّا مجتمعين حوله بتوقيرٍ كبيرٍ. وسرعان ما استرجعوا يقينهم في مختارهم. نعم، لا يمكن لذلك المختار أن يرتكب خطأ، بل إنّ كلّ شيء كان مسموحًا له بفعله، وما دام قد توقّف للصلاة لكي يشكر الربّ على خلق النور حتّى قبل أن ينبلج الصّبح، فذلك يعني أنّه على حقّ.

عندما فرغ العجوز من صلاته، طوى وشاحه واستأنف ليل مسيرته بشجاعة، وكأنّ ما في مفردات صلاته من حماسة مضطرمة خفّفت عنه أعباء الطريق، حتّى إذا وصل أخيرًا إلى الميناء، وقف وراح يتطلّعُ إلى البحر الممتدّ على مرمى البصر. فجأة، شعر بأنّ الصبيّ القديم الذي رأى البحر وأمواجه للمرّة الأولى في حياته، عاد إلى الوجود بعد أن اختفى لزمن طويل، وفكّر بتقوى: «لم يتغيّر البحر منذ ثمانين عامًا. لقد ظلّ هو نفسه، عميقًا مستغلقًا على الفهم كأفكار الربّ». وحالما جالت تلك الفكرة بذهنه، التمعت عيناه كحاله في تلك الليلة البعيدة.

بعد ذلك، قام بمباركة مرافقيه الذين كان يتهيّأ لمغادرتهم إلى الأبد، وصعد إلى السفينة مع يواكيم. وكما راقب أجداد يهود روما وأباؤهم آخر سفينة للوندال وهي تغادر الميناء، شاهدوا هم أيضا، وقد غلبهم الانفعال، سفينة بنيامين وهي ترتفع فوق سطح الماء وتبتعد عن المرسى، رافعةً أشرعتها. كانوا يعرفون في قرارة أنفسهم أنّهم

لن يروا الذي اختبره الربّ بعد تلك الليلة، وأنّ الشقاء سيكتب عليهم حالما تختفي الأشرعة بعيدًا عند الأفق.

راحت السفينة تشقّ عباب الموج في حزم وقوة، إلا أن الأمواج ثارت فجأة وطفقت ترتطم بالسفينة في عنفٍ، وتجمّعت سحب الغيوم الداكنة عند جهة الغرب، فخشي البحّارة عندئذٍ من العاصفة وما قد تحمله إليهم من أخطارٍ، لكنّ السفينة تجاوزت تلك الصعاب، رغم أنها حادت عن مسارها مرّتين، وتمكّنت من بلوغ ميناء بيزنطة بسلامٍ، ثلاثة أيام فقط بعد وصول بيليساريوس، محمّلًا بما ظفر به من غنائم في إفريقيّة.

***

كانت بيزنطة قد صارت قلب العالم وسيدة الكون، منذ أن فقدت روما صولجانها. وفي ذلك الصباح تحديدًا، كانت شوارعها تغلي بالناس، وهو أمرٌ مفهوم، فالمدينةُ التي درجت على تفضيل الحفلات والإقبال على الملذات على عبادة الله وإقامة العدل، كانت تعد مواطنيها في ذلك الصباح بعرضٍ فخمٍ لم يسبق لهم أن شاهدوا مثله في سيركها الكبير، عرض يقدّمُ فيه بيليساريوس، قاهر الوندال، الجيش المظفّر وكلّ ما غنمه من قرطاج أمام البازيليوس[55].

كانت الحشود تحثّ الخطى في الشوارع المزدانة بأعلام الزينة لتلتحق بالعرض، وقد وصلتها في الخارج صرخات الجماهير الموجودة في الهيبودروم[56] الضخم وهتافاتها. كان الحضور أشبه ببحرٍ هائجٍ وهم ينتظرون بداية العرض بنفاد صبر،

(55) بازيليوس هو لقب يوناني يعني «الملك» أو «الإمبراطور». وكان يطلق على الملوك والأباطرة البيزنطيين.

(56) المقصود به السرك.

لكنّ المنصة الإمبراطورية، بمساحتها البيضاوية الضخمة الشبيهة بقوقعة مغلقة وأعمدتها وزينتها الباذخة، ظلّت فارغة، لأنّ البازيليوس لم يكن قد ظهر بعد أمام شعبه، ولم يُرَ في مدخل الدهليز، الذي يربطُ المنصّة البيضاوية الضخمة بالقصر الإمبراطوري.

وفجأة، صدحت الأبواق وأعلنت مجيء اللحظة الحاسمة، فشاهدت الجماهيرُ الحاضرة أوّل ما شاهدت جنود الحرس الإمبراطوري وهم يدخلون في صفّ واحد منظم، بستراتهم القرمزّية وسيوفهم البرّاقة، وهو ما منح بداية العرض خلفيّة جذّابة. إثر ذلك، دخلت شخصيات البلاط الرفيعة وهي ترفلُ في ثيابها الحريريّة التي يسمع حفيفها من بعيدٍ، ومن ورائهم الكهّانُ والخصيان. وأخيرًا، جاء الدورُ على جستنيان، البازيليوس، الحاكم المطلق، صاحب التاج الذهبي، وزوجته ثيودورا[57]، وقد كانت بكامل زينتها وحليّها، فدخلا محمولين على سريرين تظلّلهما المظلات. وما كادا يأخذان مكانيهما داخل المقصورة الإمبراطورية حتى ارتجّت المدارج بهتافات الجماهير المبتهجة. نعم، كانت الجماهير مبتهجة إلى حدّ نسي معه الجميع أنّ الإمبراطور الجالس في المقصورة كان قد هوجم قبل بضع سنوات من قبل تلك الحشود نفسها في المكان نفسه، وأنّه أمر بذبح ثلاثين ألف شخص، كردّ فعل انتقامي، وذلك أمرٌ مفهوم، إذ لطالما كان النجاحُ يمحو أخطاء الماضي، ويحجبها عن أعين الحشود المبتلاة أبدًا بالنسيان. لقد كانت تصرخُ، وقد أثملتها الفخامة ومعها الحماسة التي استولت على المدرّجات، وتطلق صيحات الفرح بألف لغة مختلفة حتّى ارتجفت جدران السيرك الحجرية من هدير حناجرها. في واقع الأمر، كانت مدينة بأسرها،

(57) ثيودورا أو ثيودورا هي زوجة الإمبراطور جستنيان. كانت في الأصل ممثلة بسيطة، يفوق جمالها مواهبها في الفن المسرحي. فوقع جستنيان في حبها وتزوجها. ولقد تعاظم نفوذها عليه حين أصبح إمبراطوراً على بيزنطة في سنة 527 م.

بل أمّة بأسرها، تهتز فرحًا في تلك اللحظات لرؤية ابن الفلاح المقدوني وزوجته، تلك المرأة الرشيقة التي يتذكر كبار السنّ كيف كانت تعرضُ جسدها ليلًا، عندما كانت تشتغل راقصة، على أسرّة من يرغبون في شرائه. نعم، نسيت الحشود تلك الحقيقة أيضًا كما اعتادت أن تنسى ما يعقبُ كلّ انتصارٍ من فظاعات وما يرافق كلّ ظفر من أعمال عنفٍ.

وبينما كانت الحشود الشبيهة بمدّ أسودٍ هائجٍ تصرخُ بابتذالٍ قبيح مشيدةً بالمنتصر، كان هناك حشدٌ آخر يتابع المشهد صامتًا بلا حراك، حشد التماثيل اليونانية اللامعة العارية التي اختطف بعضها من معابدها المسالمة في تدمر[58] وكوس[59] وكورينثيا[60] وأثينا[61]، وانتزع بعضها الآخر من فوق قواعدها الرخاميّة البيضاء الصقيلة أو من فوق أقواس النصر في المدن المحتلّة. في واقع الأمر، لم تكن تلك التماثيل معنية بعواطف البشر الهشّة، أو غارقة في تأمّل بديع تكوينها وسحر رخامها، وإنّما كانت تقفُ ثابتةً، صامتة، مستسلمة، لا مبالية، خاملة، غافلة عن شؤون البشر، مشمئزة مما يجري تحت أقدامها من ألعاب دمويّة، منصرفة بكلّيتها إلى تأمّل عظمة البحر الأزرق وأمواجه الصافية التي تتكسّر على شواطئ مضيق البوسفور[62].

عادت الأبواق تصدح من جديد معلنةً عن وصول موكب الجنرال أمام السيرك، وما إن فتحت الأبواب حتّى ضجّت الحشود بالهتاف من جديد، وهي ترى فيالق

(58) تدمر هي مدينة أثريَّة ذات أهمية تاريخية كبيرة، تقعُ حالياً في محافظة حمص بالجزء الأوسط من الجمهورية العربية السورية.

(59) إحدى الجزر اليونانية التي تشكل جزءاً من مجموعة جزر الـدوديكانيسيا.

(60) إحدى مقاطعات اليونان. من مدنها أثيكيا.

(61) هي عاصمة اليونان وأكبر مدنها. يعود اسم المدينة إلى أثينا إلهة الحكمة الإغريقية.

(62) البوسفور أو مضيق إسطنبول، هو مضيق يصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة، وهو يشكل مع مضيق الدردنيل الحدود الجنوبية بين قارة آسيا وأوروبا.

جيش بيليساريوس المتجهّمة، فيالق أسست الإمبراطورية وهزمت أعداءها في كلّ مكان، فكان أن سمح لجنودها بحضور كلّ العروض للترويح على أنفسهم بكلّ أمان! على أنّ حماسة الحشود اشتدّت أكثر عندما رأت الغنائم، كنوز قرطاج، وقد كانت تبدو للرائي أشبه برتلٍ لا نهاية له، يتحرّك وراء الجيش المنتصر. شاهدت الجماهيرُ أوّل الأمر عربات النصر الضخمة، وهي عربات كان الوندال قد نهبوها من روما سابقًا، وفي إثرها، العروشُ ومذابح الآلهة المجهولة المحلاة بالجواهر والتماثيل الرائعة التي نحتت بأيدي فنانين غير معروفين احتفاء بالجمال وحده، وقد كانت جميعها موضوعة على محامل عالية. بعد ذلك، شاهدت الحشود الخزائن الفائضة بالذهب والأكواب والمزهريات والأقمشة الحريرية. كان كلّ ما استولت عليه سلالة القراصنة من أرجاء العالم الأربعة قد سلب منها وأصبح ملكًا للإمبراطور والإمبراطورية! كان الشعبُ مغتبطا للغاية وهو يعاين تلك الأعاجيب، وقد اعتقد في سكرته الساذجة، أنّ كلّ تلك الثروات والروائع، صارت ملكًا له، ابتداء من تلك اللحظة وإلى الأبد.

ومع ذلك، لم تتفطّن الحشود إلى وجود أغراضٍ بعينها، بدت باهتة وسط كلّ تلك الروائع، أغراض هي عبارة عن مائدة ضيّقة مطلية بالذهب وبوقان من الفضة وشمعدان سباعيّ، ولم ترتفع صرخة حماسيّة واحدة من حناجرها عند مرور حامليها. غير أنّ رجلًا عجوزًا تأوّه في تلك اللحظة، وهو يمسكُ بيده اليسرى ذراع جاره. كان ذلك الرجل هو بنيامين الذي رأى مرة أخرى، وبعد ثمانين عامًا، ما كان قد شاهده طفلًا: سراج هيكل سليمان المقدّس والشمعدان الذي أراد أن يمسكه بيده فشلّت ذراعه إلى الأبد. لقد شعر بالرّهبة وهو يراه ثانية. نعم، إنّه الشمعدان نفسه! إنّه مشعل الربّ الأبديّ! إنّه السراج الذي قيّض عليه أن يرتحل من مكان إلى آخر،

عبر العصور، ومع ذلك ها هو ذا يخطو في تلك اللحظة خطوته الأخيرة في اتجاه وطنه. كان لنعمة ذلك اللقاء أثر العاصفة الداخلية في قلب الرجل العجوز فلم يملك نفسه عن الصراخ بحرارة، وقد عجز عن كبح جماح فرحته الغامرة: «إنّه لنا! لنا! وإلى الأبد!».

ومع ذلك، كانت صرخته معزولة، فلم يسمعها أحد من أجواره، لأنّ أصواتهم ارتفعت فجأة بصرخة فرح واحدة ووحيدة، عندما شاهدوا بليساريوس، المنتصر، يدخل للساحة في تلك اللحظة. صحيحٌ أنّه كان يتقدّم بجواده وراء عربات النصر والغنائم، وصحيح أيضًا أنّ زيّه لم يكن يختلف البتة عمّا يلبسه جنوده، لكنّ الشعب ما لبث أن تعرّف على بطله، فضجّت الحناجر هاتفة باسمه ولا شيء غير اسمه، وهو ما حدا بجستنيان إلى أن يعضّ على شفتيه، وقد شعر بالحسد، عندما انحنى قائد جيوشه أمامه.

وكما ارتفعت هتافات الحشود على نحو مباغت لحظة دخول قائد الجيش، سكنت الحناجر فجأة وخيّم على المسرح صمت ثقيل الوطأة، وإن كان ينضح بالإثارة، فخلف الجنرال المنتصر، كان غيليمير[63]، ملك الوندال، يساق مغلولًا في تلك اللحظة، وقد ألبس ثوبًا أرجوانيًّا إمعانًا في إذلاله. وما أن أوقف العبيد الملك المهزوم بين أيدي الإمبراطور حتّى عمدوا إلى ثوبه الأرجواني فطرحوه عنه ثمّ أسقطوه على الأرض. ولما يقرب من الدقيقة، أمسك مئة ألف متفرّج أنفاسهم، وعيونهم جميعًا تلتهم يد البازيلوس. ترى هل سيعفو عنه أم لا؟ هل سيرفع إبهامه إلى الأعلى أم سينزله إلى الأسفل؟ وفعلًا، رفع الإمبراطور إبهامه ونجا المهزوم من الموت،

(63) غيليمر (480 – 553م) هو أخر ملوك الوندال الجرمانيّين (530م – 533م).

فاشتعلت حماسة الجماهير التي أثارت عاصفة من التصفيق، لكن بنيامين المضطرب، وسط تلك الحشود، لم يلقَ بالاً لما حدث أمامه، فباستثناء المينوراه التي كانت تبتعدُ وسط الساحة مرفوعة على أذرع الحمّالين، لم يكن يرى شيئًا. نعم، كانت المينوراه هي عيناه، ولذلك كلّه شعر بأنّ بصره أظلم فجأةً، عندما اختفت الذخيرة المقدّسة مع خروج الموكب، فهمس ليواكيم قائلًا: «أخرجني من هنا!». حاول الأخير أن يحتجّ بلطفٍ، وقد فتنه ما في ذلك العرض الفريد من بهاء، لكن يد العجوز القاسية النحيلة تشبّثت بذراعه أكثر، وكرّر على مسامعه بنفاد صبر: «هيّا، أخرجني من هنا! أخرجني من هنا!».

ترك بعد ذلك يده لرفيقه وراح يتلمّس طريقه كالأعمى وهو يجتازُ شوارع المدينة. لقد بدا في تلك اللحظات كأنّه بصدد تشييع الشمعدان بعين قلبه. ومع ذلك، كان يتعجّل الذهاب إلى مقرّ المجمع اليهوديّ، فراح يحثّ يواكيم على إيصاله في أسرع وقت ممكن، لأنه خاف، وقد عاين كيف وصل الشمعدان بداية حياته بنهايتها، أن يموتَ قبل أن ينقذه من الأسر.

في غضون ذلك، نفد صبر أفراد الجالية اليهودية الذين ظلوا ينتظرون ضيفهم المبجّل لساعات طويلة داخل كنيسٍ يقعُ بجهة بيرا[64]. وكما فرض على يهود أن يقيموا على ضفّة نهر التيبر المقابلة،

(64) بيرا أو بايوغلو: هي منطقة تقع على الجانب الأوروبي من إسطنبول في تركيا، ويفصلها عن المدينة القديمة (شبه الجزيرة التاريخية – القسطنطينية) منطقة القرن الذهبي. كانت تعرف باسم بيرا (وتعني «عبر» في اليونانية) خلال العصور الوسطى، وكان هذا الاسم شائع الاستخدام حتى أوائل القرن العشرين واختفى مع نشوء الجمهورية التركية.

لم يسمح ليهود بيزنطة إلاّ بالإقامة في مقاطعة بيرا، على الجانب الآخر من مصبّ القرن الذهبي. وسواء تعلّق الأمر بروما أم بيزنطة، كان الإبعاد دومًا من نصيبهم، وإن كان يعدُّ في واقع الأمر، سببًا رئيسًا في بقائهم ونجاتهم.

كانت قاعة الكنيس ضيّقة، خانقة، وتكادُ تغصّ بالخلق. فعلاوة على يهود بيزنطة، أرسلت مجامع نيقية وطرابزون وأوديسا[65] وسميرنا وتراقيا[66]، والمجامع القريبة من بيزنطة أو تلك البعيدة عنها، وفودًا لتشارك باسمها في المجلس وتساهم في الأحداث الجارية. في واقع الأمر، كان خبر استيلاء بيليساريوس على موطن الوندال، وعودته محمّلًا بالغنائم، ومن ضمنها الشمعدان الخالد، قد سرى كالنار في الهشيم داخل كلّ مجامع المدن الساحلية، وذلك منذ وقت طويل، بل إنّه لم يكن ثَمّ يهودي واحد داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية لم يرتجف انفعالًا عندما بلغ الخبر إلى سمعه. صحيح أنّ اليهود كانوا متناثرين كغبار القمح المذرّى على مساحة العالم بأسره، ومفصولين عن بعضهم بعضًا باللغات العديدة المتنوّعة، لكنّ أفراد ذلك الشعب المشتت، كانوا متضامنين ويتشاركون الأفراح والأتراح أيضًا كلّما تعلّق الأمر بذخائرهم المقدّسة، حتى إنّ ما يبدر منهم أحيانًا من قسوة ولؤم تجاه بعض أبناء شعبهم، كان سرعان ما يختفي وراء رابطة أخويّة إذا ما تعرّضوا لأيّ خطر خارجيّ. والحقّ أن كلّ ما حاق بهم من ظلم واضطهادٍ لم يفعل سوى أن عزّز تلك اللحمة الحديدية التي ما تزال إلى اليوم جذع وحدتهم المكسور، وتحول دون سقوطه وتلاشيه، والعجيب أنّ القدر كلّما وجّه ضرباته القاسية إلى واحدٍ منهم، إلاّ وتقوّت وحدة أرواحهم. وذلك ما شعروا به أيضًا عندما سمعوا بخبر تحرير المينوراه، سراج

(65) أوديسا مدينة من المدن الكبرى في جمهورية أوكرانيا تقع على ساحل البحر الأسود، كانت تتبع الإمبراطورية البيزنطية.

(66) تراقيا هي منطقة تاريخية وجغرافية في جنوب شرق البلقان تضم شمال شرق اليونان وجنوب بلغاريا وتركيا الأوروبية.

الشعب، وعودتها إلى التطواف من جديد، كما حدث ذلك من قبل في بابل أو روما، فأظهروا أهميّة بالغة للأمر وكأنّ المسألة برمّتها تتعلّق بمصيرهم، وتناقشوا فيما بينهم بحميّة، داخل المنازل والشوارع، وراحوا يفسرون نصوص التوراة على ضوء الحدث بصحبة أحبارهم وحكمائهم، لعلّهم ينفذون إلى المغزى من وراء كلّ ذلك الترحال المضروب على الشمعدان.

ما الذي كان يعنيه كل ذلك لهم؟ هل يجب أن يأملوا أم عليهم أن يخافوا؟ هل تنذر عودة الشمعدان بقدوم حقبة اضطهاد جديدة أم تبشّر بنهاية معاناتهم؟ هل سيفرض الإبعاد عليهم مجدّدًا، والضرب في الأرض حجاجًا بلا حج، مشّردين في الماضي والحاضر والمستقبل، والشمعدانُ يبدأ للتوّ رحلته الجديدة أم أنّ خلاصه سيكونُ إشارة على خلاصهم هم، وعلى قرب رحيلهم من بيزنطة والعودة إلى موطنهم، أي إشارة إلى تلك النهاية التي تهفو لها أنفسهم، بعد خراب هيكلهم المنحوس؟ كانت أرواحهم تحترق انتظارًا، والرّسلُ يجوبون كل النواحي لتسقّط أخبار رحلة المينوراه ووجهتها، ولشدّة ما كانت حسرتهم شديدة، عندما علموا أنّ أغلى ما كانوا يقدّسونهُ من بين كلّ رموز الهيكل سيقعُ تقديمه أمام الإمبراطور جستنيان في عرض عسكريّ مظفّر، كما حدث ذلك من قبل عندما وقع عرضه في روما.

رجّ ذلك الخبرُ قلوبهم رجًّا، لكن ما إن سمعوا بأنّ بنيامين مارنفشاخ، ذلك الذي اختبره الرب بشدّة، وآخر من رأى الشمعدان في طفولته، كان في طريقه إليهم قادمًا إلى بيزنطة، حتّى اشتعلت فيهم الحماسةُ، بل وفقدوا السيطرة على أنفسهم تمامًا، لأنّهم كانوا يعلمون منذ زمن بعيدٍ، أبعد حتّى من تاريخ شتاتهم نفسه، أنّ بنيامين قام

بإنجاز عظيم وهو صبيّ لم يتجاوز السابعة من عمره، عندما حاول، بعد نهب روما من قبل الوندال، أن ينتزع الشمعدان من القراصنة، ويعلمون أيضًا أنّ في مغامرته الجريئة تلك سقط الشمعدان على ذراعه فكسرها. كانت الأمهات يحدّثن أطفالهنّ عن بنيامين مارنفشاخ، الذي ضربه الربّ، وكذا كان يفعل الأحبار مع تلامذتهم، فتحوّلت مأثرته العظيمة، منذ زمن طويل، إلى أسطورة مقدّسة تكاد تشبه ما قرأوه وحفظوه من أساطير وردت في التوراة. نعم، كانت أسطورته تروى في الأمسيات كما تروى أساطير الماضي، والوقائع العظيمة، وقصص راعوث[67] وشمشون[68] وهامان[69] واستير[70]، وأساطير أمّهات وأسلاف الشعب اليهودي المقدّسين. والحقّ أنّ الخبر الرّائع المدهش سرى بينهم يربان النار في الهشيم. إنّ صبيُّ ذلك العهد ما يزالُ حيّا والأروع من ذلك كلّه أنّ الصبيّ، وقد صار عجوزًا، في طريقه إليهم، عابرًا البحارَ لرؤية الشمعدان. وبالتأكيد، كان الأمرُ في تقديرهم، يعدُّ بشارة ما بعدها بشارة، وإلا سيكون من العبث المحض أن يقوم الربّ بإطالة عمر ذلك الحكيم، على نحوٍ يتجاوزُ كلّ الأعمار العادية للبشر. لا ريب أنّ الربّ أطال في عمره لكي يعود بالشمعدان، ويعود بهم هم أيضًا، إلى الوطن. وكلّما أمعنوا في مناقشة الفكرة فيما بينهم، تضاءلت شكوكهم، حتّى اختفت تمامًا، إذ لطالما أبدت فكرة الاعتقاد في مجيء المنقذ المخلّص، استعدادها للاستيقاظ في قلوب أفراد ذلك الشعب المنفيّ، وذلك ما

(67) راعوث هي أحد شخصيات الكتاب المقدس وهي الشخصية الرئيسية في سفر راعوث. وهو أول سفر يسمى باسم إمراة نظرا للرتبة الفائقة التي وصلت إليها راعوث. تذكر في إنجيل متى كأحد أسلاف يسوع هي امرأة موآبية وهي أيضًا زوجة بوعز جد أب النبي داوود.

(68) شمشون بن منوح الدني، من شخصيات العهد القديم، هو بطل شعبي من إسرائيل القديمة اشتهر بقوته الهائلة وورد ذكره في سفر القضاة.

(69) هامان أو أمان، وزير الامبراطور الفارسي أحشويروش. ورد ذكره في سفر استير، وعادة ما يعتبره اليهود على أنه التجسيد الحيّ للشرّ المحض.

(70) استير: إحدى الشخصيات التوراتية المعروفة، ورد ذكرها في سفر استير، على اعتبارها منقذة الشعب اليهودي من الإبادة، بعد المكيدة التي دبرها هامان لدى زوجها الامبراطور الفارسي أحشويروش.

حدث في تلك الأيّام، إذ تعاظم يقينهم في قدوم المخلّص مع كلّ زفرة حارّة تخرج من صدورهم، ثمّ تبرعمت الفكرة نهائيًّا داخل قلوبهم وعندما أزهرت أخصبتها بيقين ثابتٍ. ولقد عاين أجوارهم في المدن والقرى، بدهشة عظيمة، كيف تغيّرت أحوالهم بين ليلة وضحاها، وشاهدوا كيف صار أولئك الرجال الذين عرف عنهم سابقًا التواضع والخوف والإشفاق من كلّ ما قد يصيبهم من ضروب الإذلال والإهانة، يمشون مبتهجين في الشوارع، بل ويكادون يرقصون فرحًا والنورُ يغمرهم. كما لاحظوا أيضًا كيف راح اليهود، هم الذين عرفوا بالشّح وبالاستعداد الغريزي للانقضاض على أيّ كسرة خبز، ينفقون الأموال على نحوٍ جنوني، بل إنّهم تخلّوا عمّا جبلوا عليه من جبنٍ فطريّ، ورفعوا أصواتهم التي لم تكن تسمعُ في السابق إلاّ همسًا، لكي يحاضروا ببلاغةٍ عن قدوم أزمنة أفضل.

ولم تشذّ الحواملُ عن ذلك السياق أيضًا، إذ كانت الرؤى تأتيهنّ في أحلامهنّ، وما إن يحلّ الصباح حتّى يهرعن للتسكّع في الشوارع لإبلاغ من يعترضهنّ من اليهود بشأنها. وأصابت اللوثة نفسها الأطفال، فارتدوا التيجان وحملوا الأعلام الملوّنة. ولعلّ أغرب ما حدث، هو قيام المعتقدين في فكرة المخلّص أكثر من غيرهم، بالتفويت في أملاكهم، واقتناء العربات والبغال، وقد آلوا على أنفسهم ألا يضيعوا الوقت في التحضيرات تحسّبًا لذلك اليوم الذي سيقرعُ فيه جرس العودة. أليس حريًّا بهم أن يأخذوا الطريق هم أيضًا خلف الشمعدان الذي يواصل مسيرة ترحاله في العالم أجمع؟ أليس الرّسولُ الذي رافق الشمعدان قبل ثمانين عامًا في طريقه إليهم؟ هل حدث أن رأوا بشارة كمثل تلك البشارة أو تجلّت معجزة كمثل تلك المعجزة أمام أعينهم كما حدث في تلك الأيّام؟

والحقّ أنّ ذلك ما يفسّر إقدام كلّ الجاليات اليهودية، بعد تبلّغها بالخبر، على تعيين موفد عنها لكي يشهد وصول المينوراه إلى بيزنطة ويشارك الآخرين النقاش بخصوص الخطوات القادمة. كان كلّ من وقع الاختيار عليه لتمثيل جاليته ينتفض فرحًا لذلك الشرف العظيم ويسجد للربّ شاكرًا. كان أغلبهم من أصحاب المحلات المتواضعة والحرف البسيطة، ومع ذلك، أظهروا سعادتهم بذلك الاختيار، لأنّهم سيساهمون، كلّ من موقعه، في ذلك الحدث العظيم وسيشاهدون الرجل الذي أطال الربّ، بلا ريبٍ، في حياته للنهوض بدوره بصفته مخلّص شعبه. نعم، كانوا سعداء رغم ما كانوا يعيشونه من بؤسٍ وضنكٍ ومشاكل ومخاطر يوميّة، حتى إنهم اشتروا ملابس فخمة أو اقترضوها، وكأنّهم مدعوون إلى حفلة كبيرة، وصاموا واستحموا وصلوا طوال اليوم الذي سبق رحيلهم، لكي ينهضوا بمهماتهم بأجساد وقلوب طاهرة. وعندما خرجوا مغادرين، رافقهم أفراد جالياتهم، في القرى والمدن، في الطرق لمدّة يومٍ كامل. كما نزلوا في كلّ الأماكن التي عبروا منها في طريقهم إلى بيزنطة عند أناسٍ صالحين كانوا هم أيضًا قد جمعوا الأموال لتحرير الشمعدان. صحيحٌ أنّهم كانوا مبعوثين بسطاء يمثلون شعبًا ضعيفًا، لكنّهم كانوا يغذون السيّر بخيلاء وهيبة، كأنّهم سفراء ملك عظيمٍ، حتى إنّهم كانوا لا يتوانون، كلّما التقت طرقهم واستأنفوا الرحلة معًا، عن نقاشٍ المسألة بانفعال، فتتعاظم حينئذٍ حماستهم، ويتزايد تأثرهم ببعضهم بعضًا، وترسخ في أذهانهم حقيقة أنّهم سيشهدون عمّا قريبٍ تحقّق المعجزة التي ستغيّر مصير شعبهم كما أنبأهم بذلك كتابهم منذ زمنٍ بعيدٍ.

وعلى ذلك النحو، اجتمعت وفود اليهود في كنيس بيرا، للحديث والنقاش وتبادل الأسئلة والنصائح، وكأنّها أسرابُ طيور صاخبة. في تلك اللحظة، دخل عليهم صبيّ، كانوا قد أرسلوه على عجلٍ لتسقّط الأخبار، فأخبرهم مبهور

الأنفاس، وهو يلوّح بقماشة فوق رأسه، بأنّ ضيفهم الذي غادر بيزنطة على متن قاربٍ، قد وصل إلى الشاطىء. ولمّا كانوا ينتظرونه بشدّة، سارع الجالسون إلى النهوض، وترك البقيّة ما كانوا فيه من لغوٍ وجدال، حتى إنّ واحدًا منهم، وقد كان شيخًا طاعنًا في السنّ، أغمي عليه. لم يجرؤ أيّ واحد منهم، ولا حتّى رئيسهم، على التقدّم لاستقبال بنيامين، بل ظلوّا واقفين في أمكنتهم ينتظرون القادم وهم يحبسون أنفاسهم. وعندما رأوا مارنفشاخ، بلحيته البيضاء المهيبة وعينيه السوداوين الملتمعتين، وهو يقتربُ من الكنيس، برفقة يواكيم، اعتقدوا لبرهة قصيرة أنّهم يشهدون في تلك اللحظة قدوم أحد الأنبياء إليهم، بل خيّل إلى بعضهم أنّ النبيّ صموئيل[71] وفتاه، هما من كانا يقتربان من الكنيس في تلك السّاعة. كان سيّد المعجزة يقتربُ منهم بلحمه ودمه، فانفجرت حينئذٍ حماستهم، وطفقوا يبكون ويصرخون قائلين:» مبارك هو مقدمك بيننا! مبارك هو اسمك!»، قبل أن يهرعوا في اتجاهه لكي يقبّلوا أطراف ثوبه والدموع تسيلُ مدرارًا على وجوههم الجافة. كانوا يتزاحمون ويتدافعون لكي يلمسوا بأصابع خاشعة تلك الذراع المقدّسة التي حطّمها الشمعدان الإلهي، فاضطرّ رئيس المجمع عندئذٍ إلى أن يحول بجسده بينهم وبينه لكيلا يختنق الضيف تحت اهتياجهم.

والحقّ أن بنيامين نفسه تفاجأ من حماستهم الشديدة حتّى إنّه طفق يتساءل في قرارة نفسه: «ماذا ينتظرون منّي؟ بل ماذا يأملون؟». وإذ أصابه ما علّقوه عليه من آمالٍ بالجزع، نهرهم قائلًا بلطفٍ لم يخل من حزم:

(71) صموئيل أو شموئيل أو أيضا أشمويل هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخر قضاتهم.

-لا تنظروا إليّ هكذا! لا ترفعوني حتى لا أرتفع أنا نفسي! لا تنتظروا مني أن أمنحكم معجزةً! لكم أنْ تأملوا ولكن بصبر! واعلموا أنّ طلب المعجزة كأنّها أمر مستحق يعدُّ ذنبًا عظيمًا.

كذلك قال لهم، فخفضوا رؤوسهم جميعًا، وقد اعتراهم الاضطراب، لأنّ بنيامين خمّن ما كانوا يفكّرون فيه سرًّا. وهكذا تنحوا من أمامه بهدوءٍ، وقد شعروا بالخجل من حماسهم المفرط، وأخلوا الطريق أمام رئيس المجمع لكي يتمكن من إيصال الضيف إلى الكرسيّ المريح الذي جهزوه له. وعندما عاين بنيامين أن كرسيّه كان أعلى من بقيّة الكراسي، خاطبهم قائلًا:

-كلّا! لا ترفعوني! لا أريدُ أن أكون أرفعكم مجلسًا، لأنّي لستُ أرفعكم مرتبة، بل لعلّي أكونُ أقلّكم شأنًا! فما أنا إلاّ رجل عجوز ترك الربّ فيه شيئًا من القوة. إنّي ما جئتُ إليكم إلاّ لكي أراكم وأقدّم لكم المشورة، فلا تأملوا منّي معجزةً!

فأذعنوا لرغبته، وأفسحوا له مكانًا بينهم، فجلس حينئذٍ بهدوء كان يتناقضُ مع ما كانوا فيه من اضطرابٍ. في تلك اللحظة، نهض رئيس الجالية لتحيّته، فقال:

-ليكن السلامُ رفيقك! مباركٌ هو مقدمك، ومباركٌ هو رحيلك! لقد أسعدت نفوسنا برؤيتك.

خيّم صمتٌ ثقيلٌ على المكان، سرعان ما قطعه الرئيس وهو يستأنف حديثه بصوت وقور:

-كنّا قد علمنا من إخوتنا في روما بأمر وصولك. ولقد بذلنا كلّ ما في وسعنا، فجمعنا الأموال من كلّ حدب وصوب لتحرير المينوراه. وحيثُ أننا كنّا على أتمّ

الاستعداد لنقدّم للإمبراطور أثمن ما عندنا من أجل تحرير الشمعدان، جهزنا هدّية لنيل رضاه، وهذه الهديّة هي عبارة عن صخرة من هيكل سليمان، كان آباؤنا قد نجحوا في انتشالها بعد دماره. لقد استبدّ الهوسُ بالإمبراطور فقرّر بناء هيكل أعظم من بقيّة المعابد، وراح يجمعُ، من هنا وهناك، كلّ ما كان نفيسًا ومقدّسًا في هذا العالم. وها نحن نقدّمُ له صخرتنا بطيبة نفسٍ. غير أننا جزعنا عندما طلب منا إخوتنا في روما أن نتدبّر لك لقاءً مع جستنيان لكي ترجوه أن يعيد لنا الشمعدان المقدّس، واستولى علينا خوف عظيمٌ، فحاكم هذه البلاد لا يحبّنا. زد على ذلك، هو لا يتسامح مع من يخالفونه العقيدة، سواء كانوا يهودًا أو وثنيين أو مسيحيين من أبناء الطوائف الأخرى، بل إني لا أشكُّ البتة في أنّه لن يتأخّر في طردنا من بلاده. ولأننا نعلمُ أنّه لن يسمح لواحد منّا بالمثول أمامه، جئتك بقلبٍ مثقل، لأقول لك إن ما يطلبه إخوتنا في روما يتعذّر تحقيقه، فالإمبراطور لا يستقبل اليهود!

خلّفت كلمات الرئيس صمتًا ثقيلًا رهيبًا داخل القاعة، ونكس اليهود جميعًا رؤوسهم في ذعر. أين ذهبت المعجزة التي كانوا يتشوّقون إليها؟ كيف سيتبدّل مصيرهم والإمبراطور يرفض أن يرى مبعوث الربّ ويسمعه؟ في تلك اللحظة، استأنف الرئيسُ كلامه بصوت قويّ:

-لكنّ الحظّ كان إلى جانبنا. دعونا أيّها الإخوة نستخلصُ معًا هذه الحقيقة الطيبة المطمئنة: لا يوجد مستحيل مع مساعدة الربّ. فبينما كنتُ أدخلُ إلى الكنيس، منقبض الروح، جاءني واحد من جماعتنا، وهو الصائغ زكرياء، هذا الرجل التقي الصالح، فأخبرني أنّ أمنية إخوتنا في روما قد تحقّقت. وبينما انصرفنا نحن إلى إضاعة الوقت في الجدال وبذل الجهود العقيمة، تصرّف هو بصمتٍ وحكمةٍ. وما كان يبدو

غير قابل للتنفيذ، حتّى بالنسبة إلى أشدّنا حكمة، ها هو ذا يتحّقق سرًّا. تكلّم يا زكرياء!

حالما قال ذلك، نهض رجل من آخر الصفوف، وقد بدا الاضطراب عليه لأنّ العيون كانت تتطلّع إليه. كان زكرياء رجلًا ضئيل الجسم، نحيلًا دميمًا، اعتاد الصمت والوحدة، مثل أيّ حرفيّ، حتّى إنّه نكس رأسه خجلًا كأنّه يخشى التكلّم أمام الحضور. أخيرًا تكلّم، بعد أن سعل وتنحنح عدّة مرّات، وقال بصوتٍ ضعيفٍ يكادُ يشبه أصوات الغلمان:

-أيّها الحاخام، لا تمجدّني!

وتابع بهمسٍ:

-إنّ ما قمت به لا يستحقُّ كلّ هذه الحظوة، لأنّ الربّ هو من أعانني على الأمر. أنا أعرفُ أمين الخزانة الإمبراطورية وهو رجل يحمل مشاعر طيّبة تجاهي. وسبب ذلك أني اشتغلتُ لحسابه طوال ثلاثين عامًا. ولقد حدث أن أخفيته في بيتي، هو وزوجته وطفله، طوال ثلاثة أيّام، عندما ثار الشعب على الإمبراطور قبل سنوات، ونهب منازل علية القوم وحرقها. نعم، لقد أخفيته عندي حتّى زال الخطر تمامًا. صحيح أني لم أقصده في أيّ أمر على الإطلاق، لكنّي كنت أعلم أنه سيلبّي أي طلبٍ أطلبه منه. وعندما علمت أن بنيامين في طريقه إلينا، ذهبت إليه وأخبرتهُ أنّ سفارة مهمة مهابة بصدد اجتياز البحر لزيارة الإمبراطور فوافقَ على أن يرفع الأمر إلى جستنيان. ولقد أعطى الربّ كلماته القدرة على إقناع الإمبراطور فوافق على استقبال

الوفد. وغدًا، سُيفتحُ باب الدولة، ومعه باب قاعة الاجتماعات الشهيرة، في وجه بنيامين ورئيس مجمعنا.

حالما قال زكرياء ذلك، لاذ بالصمت وعاد إلى الجلوس في مكانه بتواضعٍ جمّ. كان لكلماته وقع المفاجأة عليهم، فخيّم الصمت عليهم جميعًا وراحوا يرتجفون في أماكنهم. هل يعقل أن يقترب يهودي من أمر بعيد المنال كهذا؟! أليست هذه هي المعجزة الحقّة؟ ومع تلك الأسئلة، طفقت قلوبهم تخفق في عنفٍ، ففتحوا أعينهم على آخرها، وكأنّ ملاك الرّحمة نفسه يحرسُ ما كانوا فيه من صمتٍ يفيض بالاحترام.

في تلك اللحظة، أطلق بنيامين آهة متفجّعة وقال:

-أيّها الربّ إلهي، ما الذي تطلبه منّي؟! إنّ قلبي جبانٌ ولساني يجهل لغة هذا البلد! بأيّ هيئة سأمثل أمام الإمبراطور؟ ولماذا أنا بالذات؟ كلّ ما كان مقدّرا لي أن أفعله هو أن أكون شاهدًا، وأن أرى الشمعدان، لا أن أستعيده أو أسترجعه! لا تعيّنوني أنا! فليذهب أحد آخر في مكاني! أنا رجل عجوز وضعيف جدًّا!

ارتجفوا جميعًا عندما سمعوا كلماته. كانت المعجزة توشك على الحدوث ولكن ها هو ذا المكلّف بتحقيقها يفضّل الهرب. وبينما راحوا يفكرون في طريقة تجعلهم يتغلبون على تردّده، نهض زكرياء من مجلسه بهدوء، وقال بصوت مختلفٍ تمامًا في تلك المرة، صوت بدا حازمًا ثابتًا:

-كلّا! أنت من يجب أن يفعلها! صحيح أني لم أبذل جهدًا كبيرًا، لكني لم أفعل ما فعلت لكي يقف أمام الإمبراطور شخص آخر! إنّ الشمعدان لن يرتاح أخيرًا إلاّ على يديك. وإنيّ على يقين من هذا!

تطلّع بنيامين إلى وجهه، وهو يتساءل في سرّه:» ومن أدراه بهذا؟»، لكنّ زكرياء كرّر بلهجة حازمة مصرّة:

-نعم، إني على يقين من هذا، ومنذ زمن بعيدٍ أيضًا. إنّ الشمعدان لن يرتاح من ترحاله إلاّ على يديك.

هزّت تلك الثقة قلب العجوز، فطفق يتفرّس في ملامح الصائغ الذي منحه ابتسامة مشجّعة. وشعر بأنّ نظرات الصائغ تبدو مألوفةً لديه. في غضون ذلك، تفطّن زكرياء إلى ما كان في عيني العجوز من امتنان، فاتسعت ابتسامته، وخاطبه من فوق رؤوس الجميع، وكأنه يطلعه على سرّ:

-هل تتذكّر رجلًا اسمه هيراكونوس بن هلال، رجلًا كان قد رافق شيوخ الجالية في تلك الليلة المشهودة؟

ابتسم بنيامين بدوره وقال:

-وكيف لا أتذكّره؟ لقد حفظت كلّ كلمات تلك الليلة المباركة ووقائعها.

فأضاف زكرياء:

-حسنًا! أنا ابن حفيده. نحن صاغةُ وسنظلّ كذلك. كان الأباطرة والملوك إذا احتاجوا إلى صائغ أو أمين خزانة، يختارونه من عائلتنا. ولعلّك تذكر أنّ هيركانوس بن هلال كان يحرسُ المينوراه السجينة في روما، مثلما كان يحرسُ كنوز الإمبراطورية. ولقد لبثنا ننتظرُ منذ ذلك الوقت، ظهور الشمعدان في أيّ خزينة أخرى، بصرف النظر عن البلد الذي نعيش فيه. لقد روى لي أبي، نقلًا عن جدّي، ما جرى في تلك

الليلة التي كسرت فيها ذراعك. أخبرني أنّ الحاخام أليعاز قال عنك شيئًا لم تكن لتفهمه، أنت الصبيّ وقتها. لقد قال إنّ ثمّة حكمة من وراء جرأته وآلامه. وإن كان ثمّة من مخلّص للشمعدان، فسيكون هو!

حالما قال ذلك، ارتجفوا جميعًا. أمّا بنيامين، فقد حنى رأسه أمامهم، وقال بتأثر: «كان الحاخام أليعازر أرحم الخلق بي في تلك الليلة، وكلمته عندي مقدّسة. فلتغفروا إذن جبن قلبي! لقد كنتُ رجلًا شجاعًا فيما مضى، لكنّ السنّ والزّمن جعلاني متردّدًا. ومع ذلك، هأنذا أتوسّل إليكم مرّة أخرى: لا تنتظروا مني معجزةً! أنتم تريدون مني أن أمثل بين يدي من يمتلك الشمعدان؟ حسنًا، سأفعل! فالويل كلّ الويل لمن يهرب من مهمة مقدّسة! صحيح أنّ الربّ قد منح لساني شيئًا من البلاغة، لكني أطمعُ في مساعدته، لعلّي أعثر على العبارات الملائمة!».

كان صوت العجوز قد ضعف في تلك اللحظة، ومال رأسه على صدره، كأنّه تهيّب من ثقل مهمته، لكنه أضاف بهدوء:

-أعتذر منكم جميعًا، ولكن عليّ أن أغادركم الآن. أنا رجل طاعنٌ في السنّ. ولقد أرهقتني الرحلة وفوقها هذا اليوم الشاقّ. فأرجو أن تسمحوا لي بالمغادرة لكي أرتاح قليلًا.

وما إن قال ذلك حتّى أفسحوا له الطريق في احترامٍ، لكنّ يواكيم، دليله المتهوّر، لم يطق صبرًا فسأله وهو يقوده إلى المخدع الذي جهّزوه له:

-ولكن ماذا ستقول للإمبراطور غدًا؟»

لم يرفع العجوز عينيه، بل غمغم وكأنه يحدّث نفسه:

-لا أعرف ولا أريد أن أفكّر في ذلك. إنّي مرهق للغاية. سأفعلُ غدًا كلّ ما بوسعي، والربّ يدبّر الأمر من بعد.

***

أمضى يهود بيرا ليلتهم تلك مجتمعين لساعات طويلة. كان النوم قد جافاهم تمامًا، فبقوا مستيقظين، يتناقشون فيما بينهم ويثرثرون دون توقّف. لم يسبق لهم أن شعروا قبل تلك الليلة بأنّ المعجزة أصبحت قاب قوسين أو أدنى من التحقق. هل سيشهدون نهاية شتاتهم، ومعه نهاية عذابات منافيهم القاسية؟ هل شارف زمن الملاحقات والاضطهاد والخوف الفطريّ ممّا يحمله الغد، بل وممّا تحمله الساعة القادمة، على النهاية؟ هل من الممكن أن يكون ذلك الرجل المسنّ، المقيم بينهم، مبعوثًا من الربّ حقًّا وواحدًا من حملة كلمته، أولئك الذين ظهروا قديمًا وسط شعبه وعرفوا كيف يحثُّون قلوب الملوك على سلوك مسلك العدل والإنصاف؟ كانت تلك الأسئلة تمورُ داخل صدورهم لكنّها لم تفسد سعادتهم المباغتة وفرحهم العظيم. فها هي ذي الفرصة تسنحُ أخيرًا، وها هم سيعودون بذخائرهم المقدّسة إلى وطنهم ويعيدون بناء الهيكل حيث سيعيشون في ظلّه...

كانت ليلة مجنونةً، غمرهم فيها ابتهاجٌ عظيم، فراحوا يتناقشون وراحت قناعاتهم تتعزّزُ باطراد. ولقد نسوا في غضون ذلك ما أوصاهم به العجوز. كان قد قال لهم لا تطلبوا منّي معجزة، لكنهم نسوا ذلك، لأنّ أولئك الرجال لم يتعلّموا من كتبهم المقدّسة سوى الإيمان المعجزات. فهل كان أمامهم أن يفعلوا غير ذلك؟ هل كانوا سيستمرّون كلّ هذه القرون ويقبلوا على أنفسهم الحرمان والاضطهاد لولا ذلك الإيمان الثابت في الخلاص؟

كان كلّما تقدّم الليل، إلا وبدا لهم الغد بعيدًا، حتّى إنّهم عجزوا عن تمالك أنفسهم، ولم يقدروا عن تحويل أعينهم عن الساعة الرمليّة التي راحت ذرّاتها تتسربّ ببطء دفع باليأس إلى قلوبهم. كان بعضهم يلازمُ نوافذ الكنيس يستطلعُ بزوغ شمس النّهار، فيما دوام بعضهم الآخر على الخروج إلى الشوارع، لعلّه يرى الفجر يلقي نوره من بعيدٍ على مياه البحر، أو لعلّه يرى الشمس تشتعل في السّماء كما اشتعلت قلوبهم في تلك الليلة. وعلى الرغم ممّا عرفوا به من هدوء وإذعان، ألفى رئيسهم صعوبة بالغة في تهدئة أنفسهم، لا سيّما عندما عبّروا أمامه عن رغبتهم في الذهاب إلى بيزنطة والانتظار أمام القصر الإمبراطوري ريثما ينتهي بنيامين من مخاطبة الإمبراطور، سيد العالم. كانوا يريدون أن يكونوا فاعلين ويساهموا في تحقّق المعجزة، وهو ما أزعج رئيس الجالية، فذكرهم بصرامة بما قد يترتب على ذهابهم هناك من مخاطر جمّة. فعلاوة على كره الشعب لليهود، كان من شأن تحوّل وفدٍ منهم إلى هناك والتجمّع بأعداد كبيرة أمام القصر الإمبراطوري، أن يلفت الانتباه إليهم، وهو ما يعني تعريض حيواتهم للخطر. وزاد الرئيس فطالبهم بأن يبقوا داخل الكنيس، مختفين عن الأنظار، ويكتفوا بالصلاة للإله الحيّ والدعاء لبنيامين الذي سيمثل في حضرة الملك العظيم.

وعلى ذلك النحو، أمضى يهود تيرا نهارهم كلّه في الصلاة والصوم. كانت عقولهم منصرفة إلى فكرة وحيدة وهي أن ينجح ذلك الذي اختبره الربّ في تحقيق المعجزة وينهي لعنة شتاتهم التي تثقل عليهم، ولذا انغمسوا بكليتهم في العبادة، وصلّوا بقوّة وحماس، حتى بدا الأمر كأنّ حنين يهود الأرض قاطبة للخلاص قد تجمّع في قلب كلّ واحد منهم.

كانت الساعة قد اقتربت من منتصف النّهار، موعد الاجتماع بالإمبراطور، عندما تجاوز كلّ من بنيامين ورئيس الجالية الساحة المربّعة الواسعة الممتدّة أمام قصر جستنيان. وكان يواكيم، الشاب اليافع القوي، يغذ السير في إثرهما بقوّة وهو يحملُ فوق كتفيه حملًا بدا ثقيلًا وغريبًا. وبخطى وئيدة، وملامح جادّة هادئة، تقدّم العجوزان في اتجاه باب الدولة المفضي إلى قاعة عرش إمبراطور بيزنطة المهيبة، غير أنّهما استبقيا داخل غرفة ملحقة بقاعة العرش، لأنّ مسؤولي البلاط درجوا على استبقاء السفراء وأصحاب الحاجات خارجًا في البهو ودفعهم إلى الانتظار إلى ما لا نهاية حتّى يقع في روعهم أنّ أعظم ما يمكنُ أن يحظوا به في الوجود هو تأمّل وجه أقوى أمراء الكون. لقد تركوا العجوزين ينتظران ساعةً ثمّ ساعتين وثلاثًا دون أن يهتموا لأمريهما أو يبادروا حتّى إلى تقديم كرسيّ أو مقعد خشبيّ قصير لأحدهما، غير أنّهم سمحا لهم بالتحرّك فوق الأرضية الرخامية الباردة. في غضون ذلك، تظاهر كلّ من كان أمامهما أو حولهما من شخصيات دولة وخصيان سمان وحرس وعبيد كانوا يرفلون في الملابس الزاهية، بأنّهم منشغلون بشؤونهم، فلم يبد أحد منهم أدنى اهتمامٍ بالزائرين أو وجّه لهما كلمة أو نظرة، حتى اللوحات الفسيفسائية الملوّنة المعلقّة على الجدران بدت هي الأخرى كأنّها تتطلّعُ إليهما في برود. كان طلاء القبّة المذهبّة البرّاقة المقامة على عواميد رقيقة يمتزج بأشعّة الشمس، فوق رأسيهما، فيبسط نوره السنيّ على البهو كلّه، لكنّهما لم يحفلا بذلك، وبقيا ينتظران في صمتٍ. كانا قد تعلّما طوال حياتيهما المديدة كيف يصبران على الانتظار، ولذلك لم يكن يعنيهما في شيء إن زادت ساعة عن الموعد أو نقصت. وكان يواكيم، الشاب المتّقد عنفوانًا، على العكس منهما، إذ بدا له الانتظار طويلًا على نحو لا يطاق، فحاول أن يختصر الوقت بمراقبة المارين من أمامه أو عدّ مكعبّات الفسيفساء.

وعندما بدأت الشمسُ أخيرًا في الانحدار، تقدّم الحاجب المكلّف بالبروتكول الإمبراطوري من ثلاثتهم، ولقنهم تلك المراسم الصارمة المفروضة على كلّ من ينال شرف المثول أمام الإمبراطور. أخبرهم أنّه عندما يفتح الباب، سيكون عليهم أن يخطوا عشرين خطوة خافضي الرؤوس حتّى يصلوا إلى شريط أبيض يقسمُ الأرضية الرخامية الملوّنة، وهناك عليهم أن يتوقفوا لكيلا تختلط أنفاسهم بأنفاس جستنيان. وقبل أن يسمح لهم برفع أعينهم إلى الحاكم الأوحد، سيكون عليهم أن يلقوا بأنفسهم على الأرض ثلاث مرّات، فاتحين أذرعتهم وسيقانهم. وحينها فقط، سيسمحُ لهم بالاقتراب من العرش المصنوع من الرخام السُّماقيّ، وتقبيل ذيل ثوب البازيلوس الأرجواني الطويل.

حالما أنهى كلامه، غمغم يواكيم بغضب:

-أنا أرفض أن أفعل ذلك. يجب أن نسجد لله لا لمخلوق بشريّ.

فردّ عليه بنيامين بقسوة:

-اصمت! لماذا لا نقبّل الأرض أيضًا؟ أليست صنيعة الخالق هي الأخرى؟ وهب أن السجود لغير اللهّ محرّم علينا، أفلا يجوز لنا أن نرتكب ذنبًا صغيرًا من أجل قضيّة مقدّسة؟!

في تلك اللحظة، فُتح باب قاعة الاجتماعات العاجيّ، وخرج منه وفد قوقازيّ، كان قد قدم لتحيّة الإمبراطور، وما لبث الباب أن أغلق وراءهم. ومع ذلك، لم يتحرّك أولئك الأغرابُ، وقد كانوا يرتدون ملابس من القطيفة ويعتمرون قبعات من الفراء، من أماكنهم، لأنّهم كانوا مضطربين ومذعورين، بعد أن رفض جستينان

فكرة التحالف مع أمّتهم بتعالٍ قاسٍ وطالبهم بالخضوع التامّ له. طفق يواكيم يتفرّس بفضولٍ في أولئك الأغراب وملابسهم الغريبة، لكنّ الحاجب أمره فجأة بإنزال حمولته على الأرض ثمّ التفت إلى رفيقيه وشدّد عليهما بضرورة التقيّد بتعليماته، بعد ذلك عمد إلى الباب العاجيّ وقرعه بخفّة، فانفتح من الداخل دون أن يصدر صوتًا.

دخل الرجال الثلاثة الكونسيستريوم، قاعة عرش إمبراطور بيزنطة الواسعة، وما لبث أن انضمّ إليهم مترجم بإشارة من الحاجب. كان أوّل ما رأوه عند دخولهم هو صفّان من الجنود بأثوابهم الحمراء، كانا يمتدّان إلى وسط القاعة الشاسعة. وكان كلّ جنديّ من أولئك الجنود يتمنطق سيفًا ويمسكُ رمحًا طويلًا بيده اليمنى ويضع الفأس ذا الوجهين على كتفه ويعتمر خوذةً مذهّبة تنتهي بعرفٍ طويلٍ. كانوا جميعًا متماثلين في الحجم والامتلاء وهم يقفون ثابتين متراصين بانتظامٍ مثاليّ داخل الصفيّن، حالهم في ذلك حال الحجارة المحيطة بهم. وخلفهم تمامًا، وقف ضبّاط الأفواج، بالجمود نفسه، وهم يرفعون راياتهم. تقدّم اليهود الثلاثة، ومعهم المترجم، بين صفيّ التماثيل، دون أن تلقي عليهم أعين الجنود الثابتة كأجسادهم أي نظرة. وبهدوء، واصلوا تقدّمهم إلى صدر القاعة حيث كان جستينان ينتظرهم بلا شكّ، أو بالأحرى، كان ذلك ما خمّنوه لأنّه لم كان مسموحًا لهم أن يرفعوا رؤوسهم. فجأة توقّف الحاجب، وقد كان يتقدّم الموكب، ورفع عصاه، وحينئذٍ سمح لهم أن يرفعوا رؤوسهم نحو عرش الإمبراطور، لكنهم لم يروا شيئًا، لا العرش ولا الإمبراطور. كلّ ما هو شاهدوه هو ستارة حريريّة كانت تقسم القاعة الواسعة وتحجب عنهم الرؤية. فأدركوا وهم يقفون أمام ذلك الحاجز الملوّن أنّه يمنع عليهم الاقتراب أكثر من ذلك.

وعندما رفع مسؤول التشريفات عصاه ثانية، انفرجت الستائرُ، كأنّما جذبت بحبال غير مرئية، وتعالى حفيفها، قبل أن يظهر البازليوس من ورائها وهو يجلسُ على عرش مرصّع بالأحجار الكريمة، تعلوه قبّة مذهبّة، ويرتفع عن الأرض بخمس درجاتٍ من الرّخام السماقيّ. كان البازيلوس رجلًا لحيمًا قوّيًا، محافظًا على سكونٍ مثاليّ حتّى بدا كأنّه صورة ثابتة عن نفسه. كان محاطًا بحرسه، ذوي البذلات البيض والخوذات والقلائد الذهبيّة وأعضاء مجلس الشيوخ وشخصيات الدولة الرسميّة، ذوي الملابس الفضفاضة المصنوعة من الحرير الأرجوانيّ. ولقد بدا ذلك الجمعُ كأنّه مجموعة من التماثيل والأنصاب حتّى إنّ بوسع المرء أن يزعم أنّ أنفاسهم قد توقفت في صدورهم وعيونهم قد تصلّبت في محاجرها. كان واضحًا أنّ الهدف من كلّ ذلك الجمود هو بثّ الرّعب في قلوب من ساقهم الحظّ للمثول أمام سيّد الكون للمرّة الأولى.

ولقد وقع الرّعب في قلبي رئيس الجالية ويواكيم فعلًا، فخفضا بصريهما بسرعة، حالهما في ذلك حال من أغشته شمس الظهيرة على حين غرّة. أمّا العجوز بنيامين فلقد حافظ على ثباته وواصل التطلّع إلى وجه جستينان. كان قد رأى، خلال حياته الطويلة، عشرة أباطرة يتداولون على حكم روما، وكان يعرفُ أنّ التيجان والشارات الفخمة لن تغيّر حقيقة أنّ الملوك هم أيضا بشر فانون، يأكلون ويشربون، يحبون ويموتون، حالهم في ذلك حال غيرهم من البشر. ولكلّ ذلك، حافظ على ثباته وتماسكه، وراح يتطلّع بهدوء إلى عيني الملك الذي كُلّفَ بالحديث إليه لعلّهُ يقرأ فيهما ما يعزّزُ أمله. بيد أنه تلقى ضربةً قاسية مفاجئة على ظهره من عصا الحاجب وكأنّها تذكره بضرورة التقيّد بالمراسم المفروضة على زوّار الملك. فقام حينئذٍ بحركة رياضيّة شاقة أرهقت أطرافه الواهنة، فارتمى فوق بطنه على الأرض، مادًّا ذراعيه وساقيه،

ولامس جبينه الأرضية ثلاث مرّات، تاركًا لحيته تحتكّ بالحجر البارد حتّى تعالى حفيفها. وحالما فرغ من ذلك، نهض من على الأرض بمساعدة يواكيم، واقترب من مدرّجات العرش، حانيًا ظهره، وقبّل ذيل العباءة الإمبراطورية الأرجوانيّ.

ظلّ جستنيان ثابتًا في مكانه، لا تتحرّك منه حدقة ولا يختلج منه جفن أو رمش، وراحت عيناه القاسيتان الشبيهتان بأحجار الزّمرّد تنظران من علٍ إلى العجوز. فعلام يهتمّ إمبراطور عظيم مثله بما يجري تحت قدميه؟ وعلام يرهق نفسه بالتطلّع إلى تلك الدودة الزاحفة تحت عباءته؟

أشار مسؤول التشريفات إلى الزوار الثلاثة فتراجعوا جميعًا إلى الخلف، ووقفوا في صفّ واحدٍ وراء المترجم بوصفه الوسيط بينهم وبين الإمبراطور. وعندما رفع الحاجب عصاه مرّة أخرى، طفق المترجم يتحدّث فقال إن أولئك اليهود الثلاثة كلّفوا من أتباع دينهم في روما بتهنئة سيّد الكون وشكره على انتقامه لروما وتطهيره الأرض والبحار من القراصنة الكريهين الفاسدين. ولأنّهم علموا أن الإمبراطور كان قد قرّر بحكمته السّديدة أن يشيّد كنيسة على شرف آيا صوفيا[72]، حكمة الربّ المقدّسة، تعلو عظمتها على كلّ المعابد، فإنّ يهود العالم، وعبيد الإمبراطور الفقراء، قد اتفقوا فيما بينهم على المساهمة في بناء ذلك الصرح العظيم. وإذ كان صحيحًا أنّ هديتهم تعدُّ متواضعةً جدًّا مقارنة بعظمة الإمبراطور، إلاّ أنّها تظلُّ الأكثر تعظيمًا وقداسةً من بين كل ما يمتلكونه. لقد قام أسلافهم باستنقاذ تلك الصخرة من خراب الهيكل إبّان هجرتهم من أورشليم وهاهم يقدّمونها هديّة إلى الإمبراطور لعلّ ذلك

(72) بدأ الإمبراطور جوستنيان في بناء هذه الكنيسة عام 532م، واستغرق بناؤها حوالي خمس سنوات حيث تم افتتاحها رسميًا عام 537م، ولم يشأ جوستنيان أن يبني كنيسة على الطراز المألوف في زمانه بل مال قلبه إلى ابتكار معمار جديد. وتعني آيا صوفيا حكمة الرب أو الحكمة الإلهية.

الجزء اليسير من هيكل سليمان يلتحم ببيت جستنيان المقدّس، فتحلّ عليه بركة السّماء.

حالما فرغ المترجم من حديثه، أشار الحاجب إلى يواكيم فعمد الأخير إلى الصخرة الثقيلة، فجلبها ووضعها إلى جانب هدايا الوفد القوقازيّ، وقد كانت عبارة عن معاطف من الفراء وعاج الهند وملابس كشمير المطرّزة. في غضون ذلك، لم يلتفت جستنيان لا إلى المترجم ولا إلى الهديّة، بل ظلّ شاخصًا في الفراغ، غير عابئ بما يدور أمامه، ذاهلًا، ضجرًا، قبل أن يحرّك شفتيه بلا مبالاة ويخاطب المترجم قائلًا بلهجة متعالية صارمة:

-اسألهم ماذا يطلبون!

فانبرى حينئذٍ المترجمُ يشرح الأمر لإمبراطوره، فقال، وهو يتخيّر عباراته، إنّ من بين ما جلبه بيليساريوس من غنائم بديعة، توجدُ ذخيرة لا قيمة فعليّة لها، لكنّها تعدُّ نفيسةً، بوجه خاص، لدى الشعب اليهودي، وتلك الذخيرة هي عبارة عن شمعدان سباعيّ كان قد نهب في السّابق من هيكل سليمان، ثمّ أعاد الوثنيون نهبه وحملوه معهم بعيدًا إلى موطنهم وراء البحار. وهاهم اليهود يلتمسون فضل إمبراطورهم ويتوسلونه لكي يردّه إليهم، وسيدفعون له مقابل ذلك ضعف وزن الشمعدان ذهبًا أو عشرة أضعاف إذا شاء. وزاد المترجم فأضاف أنّه لن يكون على وجه الأرض منزل أو كوخ يسكنه يهودي، لا ترفع فيه الصلاة كلّ يوم شكرًا لأكثر أباطرة العالم كرمًا، أدام الربّ ملكه.

حافظت عينا البازيلوس على جمودهما وهو يقول بنبرة هازئة: «لا أريد صلوات من الكفّار. اسألهم ماهي مزايا هذه الذخيرة وفيم ينوون استخدامها؟». فترجم الوسيط كلمات الإمبراطور وهو يتطلّع إلى بنيامين. كانت أطرافُ ذلك الأخير قد تثلّجت فعلًا من جرّاء نظرات جستنيان الباردة، فراح يرتجف في مكانه.

وما لبث العجوز أن لملم شتات نفسه، وقد حدس وجود مقاومة لدى الإمبراطور وخاف أن يفشل في التغلّب عليها، فمدّ يده المتضرّعة قائلًا:

-إنّي ألتمس فضلك يا مولاي، فالشمعدان هو آخر ما تبقى لدى شعبنا من ذخائر مقدّسة! لقد دمّروا مدينتنا، وسوّوا أسوارها بالأرض وخرّبوا هيكلنا. ومن بين كلّ ما نحبّه ونقدّسه، ظلّ هذا الشمعدان يقاوم صروف الزّمن. ليس ثمّة ما هو أقدم منه. لقد كان وسطنا منذ آلاف السنين. وشعبنا لن يعرف الرّاحة ما لم ينته ترحال الشمعدان. أشفق علينا يا مولاي! فهذا الشمعدان هو كلّ ما لدينا! أعده لنا! وتذكّر أن الرّب أخرجك من الظلمات ورفعك على العرش وجعلك غنيًّا من بين كلّ الرجال! إنّ من يُعطى عليه أن يعطي بدوره، فهذه هي شريعة الربّ! هذا الشمعدان التائه لا يساوي شيئًا في عينيك يا مولاي! فاسمع إلى دعائي وأعد إلى أرواحنا السّلام!

أعاد الوسيطُ ترجمة كلام العجوز بشجاعةٍ كبيرة. ولئن لم يهتمّ الإمبراطور أوّل الأمر بما كان يقولهُ المترجم، فإنّ أسارير وجهه ما لبثت أن اكفهرّت عندما سمع تلميح بنيامين لقصّة إخراجه من الظلمات. كان يكره أن يذكره أحدهم، هو خيال الربّ على الأرض، بجذوره الريفية المتواضعة، ومنشئه في قرية تراقيا، فتغيّرت ملامحه، وأعلن بعبوسٍ رفضهُ تسليم الشمعدان لليهود.

لم يفت تغيّر ملامح الإمبراطور عن عينيْ بنيامين القلق، وخمّن إجابة الإمبراطور حتّى قبل أن تدوّي تلك الـ «لا» الرهيبة داخل القاعة، وبين جنبات قلبه. كان رفضًا لا رجوع فيه، لكنّ الخوف استولى على قلب العجوز ودفع به إلى الأمام حتّى تجاوز الشريط الأبيض أمام دهشة الجميع وصار قاب قوسين أو أدنى من العرش. لقد بدا الأمر كأنّ يدًا خفيّة دفعت العجوزُ إلى تجاوز الممنوع، لا سيّما وهو يرفعُ يده بحركة ذاهلة ويناشد الإمبراطور قائلًا:

-اعلم يا مولاي أن الأمر يخصُّ مدينتك وإمبراطورتيك أيضًا! فلا تغترّ بقدرتك على منع ما عجز البشر على منعه حتّى اليوم! لقد كانت كلّ من بابل وروما وقرطاج، مدنًا عظيمة، مثل مدينتك، ومع ذلك، دُمرّت معابدها ودُكّت أسوارها لأنّها حبست الشمعدان عن شعبه! هو وحده من سيظلّ سليمًا عندما ينهار كلّ شيء من حوله. هو وحده من سيكسر الذراع التي تسعى إلى الاستيلاء عليه! لن يعرف الرّاحة ذاك الذي يزعج راحته! فالويل كلّ الويل لكلّ من استولى على ما يملكه الآخرون! واعلم يا مولاي، أنّ الربّ لن يمنح السّلام للبشر طالما أنّ رمزه المقدّس لم يعد إلى أرضه المقدّسة. فهلّا استمعت لي يا مولاي! أعد لنا الشمعدان!

وما كاد العجوز ينهي كلامه حتّى خيّم الوجوم على الحاضرين. صحيح أنّ كبار شخصيات الدولة لم يفهموا كلمة واحدة من خطاب العجوز العنيف، لكنهم عاينوا برعبٍ ما اقترفه الزائر من جرمٍ، لم يسبقه إليه مخلوق، عندما اقترب من عرش أقوى رجل على الأرض وخاطبه بتهوّرٍ. كانوا يرتجفون من الرعب وهم يتطلعون إلى العجوز الذي لم يتحرك من مكانه قيد أنملة. كانت آلامه قد فاضت في قلبه فشلّت تفكيره، وأجرت الدموع في عينيه حتّى سالت على لحيته، وأشعلت عينيه فبدتا

كقطعتين من الجمر، ومع ذلك، لم يتزحزح عن مكانه قيد أنملة وظلّ قريبًا من العرش، واقفًا أمام البازيلوس وجهًا لوجه.

في غضون ذلك، تراجع كلّ من رئيس الجالية والمترجم وقد اعتراهما الخوف. أمّا جستنيان، فلقد غادره جموده للمرّة الأولى، فألقى نظرة مهدّدة على العجوز المتهوّر، قبل أن يستدير فجأة ناحية المترجم ويسأله بنفاد صبر أن يترجم له كلام بنيامين.

وبحذرٍ شديد، وبكلمات حاول تخفيف وقعها قدر الإمكان، استهلّ المترجم حديثه مخاطبًا قلب إمبراطوره الرّحيم، فرجاه أن يغفر للعجوز سوء تصرّفه. وأضاف أنّ ما كان يشعرُ به من همّ صادقٍ بسبب ذلك الشمعدان، وقد بات ملكًا للإمبراطورية، هو ما أفقده صوابه تمامًا، ذلك أنّ لعنة الربّ نزلت على تلك الذخيرة المقدّسة فصارت شؤمًا على كلّ من امتلكها. وزاد فقال إنّه ما وجد في مدينة إلاّ وسقطت بأيدي أعدائها، ولذا رأى العجوز أنّ من واجبه تحذير الإمبراطور والتعهّد بإنهاء تلك اللعنة، وذلك بإعادة الشمعدان إلى موطنه الأصليّ في أورشليم.

أصغى جستينان إلى كلام مترجمه، متكدّر السريرة، مغضّن الجبين. صحيح أنّ وقاحة العجوز اليهودي الأحمق الذي تجرّأ على رفع صوته ويده في حضرته، قد أغضبته بشدّة، لكنّها أيقظت داخلهُ قلقًا ما. كان ابن الفلّاح ذاك رجلًا متطيّرًا، يخشى التعاويذ والنذر السّيئة، حاله في ذلك حال كلّ الذين فضّلهم حسن الطالع على غيرهم من البشر، فلاذ بالصمت لبرهةٍ، قدح فيها ذهنه، ثمّ رفع رأسه وقال بنبرة آمرة جافّة:

-فليكن! لتبحثوا عن هذا الشيء بين الغنائم ثمّ أرسلوه إلى أورشليم!

ارتجف العجوز حالما نقل له المترجم ذلك، وشعر بالإجابة المباركة تخترقُ روحه وتنيرها على حينَ غرّة، كأنّها وميض برق. ها هو ذا يحقّق هدف حياته! ها هو ذا الربّ الحيّ يطيل في عمره لكي يشهد تلك اللحظة! كان مذهولًا عمّا حولهُ وهو يرفعُ ذراعه السليمة إلى الأعلى، كأنّما يرفعها تعبيرًا عن امتنانه لله. لكن عينا جستنيان الثاقبتان رصدتا إشراق وجه بنيامين بذلك الحبور المفاجئ، فامتلأ قلبه بفرحٍ خبيثٍ. لقد كره أن يرحل ذلك اليهودي الوقح فيعظم شأنه بين شعبه لأنّه نجح في أن يؤثّر على الإمبراطور، فقال وقد افترّ ثغره عن ابتسامة تقطرُ شرًّا:

-لا تبتهج سريعًا أيّها العجوز! لن تروا الشمعدان أبداً يا يهود ولن أتركه يخدم عقيدتكم الكاذبة.

ثمّ التفت إلى الأسقف أوفيميوس، الجالس على يمينه، وقال:

-عند حلول القمر الجديد، ستذهب إلى أورشليم لكي تبارك كنيسة ثيودورا وستأخذ معك الشمعدان، لكنه لن ينير المذبح. اتركوه تحته ولا تشعلوه حتّى يعرف اليهود أن ديننا أعظم من دينهم وأنّ الحقّ أعلى من الضلال. نعم، سيعود الشمعدان إلى بيت الله الحقيقي، لا إلى بيت هؤلاء الذين لم يعترفوا بالمخلّص عندما بعث فيهم.

في تلك اللحظة، ارتجف العجوز. لم يكن يحتاجُ إلى من يترجم له تلك الكلمات الأجنبية، فرؤية ابتسامة الإمبراطور الشريرة كانت لوحدها كافية لكي يدرك أنّ الأخير أمر بشيء ضدّهم. ولقد أراد أن يلقي بنفسه مجدّدًا تحت قدمي جستنيان لعلّه يتمكن من تغيير رأيه، لكن الإمبراطور أومأ إلى الحاجب، فرفع الأخير عصاه،

وانسدلت الستارة سريعًا. وعلى ذلك النحو، اختفى الإمبراطور وعرشه وانتهى الاجتماع.

ومع ذلك، لم يتحرّك بنيامين من مكانه بل ظلّ واقفًا أمام الستارة المسدلة إلى أن تقدّم منه مسؤول التشريفات وربّت على كتفه داعيًا إيّاه إلى الرّحيل. عندئذٍ، تحرك العجوز وغادر المكان مستندًا على يواكيم. كان يسير مترنّحًا، زائغ النظرات، وقلبه يكاد ينفطرُ. فها هو ذا الربّ ينبذهُ للمرّة الثانية، حين أوشك على الإمساك بالذخيرة المقدّسة، وها هي ذي ساعة الخلاص تبتعد ثانيةً، ليبقى الشمعدانُ تحت أيدي الطغاة!

حتّى إذا صار بنيامين مارنفشاخ، الرجل الذي اختبره الربّ مرّتين بقسوة، على بعد خطوات من القصر الإمبراطوري، ترنّح وكاد يسقط على وجهه، فهرع إليه كلّ من رئيس الجالية ويواكيم، فأسنداه، وسارا به حتّى وصلوا جميعًا إلى منزل قريبٍ. وهناك، تفقداه مجدّدًا، فهالهما وجهه الأبيض الشاحب وجفناه المنسدلان فوق عينيه ويداه المرتخيتان حتّى حسبا أنّه يحتضرُ. وعندما مال رئيس الجالية القلق على قلب العجوز، ألفى دقّاته واهنة ضعيفة، كأنّ الالتماس الذي رفعهُ إلى الإمبراطور سحب منه آخر قواه.

ولقد بقي المحتضر على تلك الحال من الغياب لساعاتٍ طويلة، ولكن مع اقتراب حلول الليل، نهض فجأةً وطفق يحدّقُ، زائغ النظرات، في رفيقيه المندهشين، كأنّه عاد للتوّ من العالم الآخر، وما لبث أن زاد من دهشتهما، حين أمرهما أن يحملاه في الحال إلى كنيس بيرا لكي يودّع أبناء الجالية. وعبثًا حاولا إقناعه بأن يعتني بنفسه ويرتاح قليلًا، إذ بدا العجوز مصرًّا على قراره، فتعاونا حينئذٍ على حمله ووضعاه

داخل نقّالة، ثمّ سارا به إلى أن وصلوا جميعًا إلى مركب انطلق بهم إلى ضاحية بيرا. في غضون ذلك، لم ينبس العجوز ببنت شفة، وبقي طوال الرحلة صامتًا، زائغ النظرات، كأنّه مسرنم.

كان يهود بيرا قد علموا بقرار الإمبراطور منذ وقتٍ طويل، فاغتمّوا لذلك كثيرًا. كانوا يعوّلون على حدوث المعجزة، فإذا بالإمبراطور يقرّر إرسال الشمعدان إلى أورشليم، وهو ما كان يعدُّ نجاحًا ضئيلًا مقارنةً بآمالهم الكبيرة. أليست المينوراه في طريقها إلى أن تسجن مرّة أخرى بين جدران معبدٍ أجنبيّ عنهم؟ ألا يعني ذلك استمرار تيههم ومعاناتهم بعيدًا عنها؟ في واقع الأمر، كان أكثر ما يشغل تفكيرهم هو مصيرهم، لا مصير الشمعدان، وذلك ما يفسّر امتلاء قلوبهم بمشاعر الأسف والإحباط والغضب الصامت، وهم يجتمعون في الكنيس في تلك الليلة. آه من النبوءات الكاذبة! المجنون هو من يعتقد فيها! إنّ معجزات التوراة المجيدة لا تشعُّ علينا إلاّ في المنفى، كأنّما هي غيومٌ تشتعل من بعيد لتنير الأفق، لكن زمننا هذا لم يعد زمن المعجزات! لقد نسي الربّ شعبه. نعم، لقد نسي شعبه المختار وأدار ظهره لمحنه ومصائبه! لقد توقف الربّ عن إرسال أنبيائه إلى الشعب لكي يكلموه باسمه! كان من الحمق أن نعتقد في النبوءات وننتظر معجزة تغيّر حظّنا!

كذلك راحوا يرددون فيما بينهم، وقلوبهم تكادُ تتميّز من الغيظ. ومن ثمّة قطعوا صلاتهم وصومهم، وانتحى كلّ واحدٍ منهم مكانًا بعيدًا عن صحبه، ليأكل بأسى خبزه المفروك بالبصل. انطفأ الرجاء في أعينهم وادلهمّت جباههم، وعادوا كما كانوا سابقًا، يهودًا فقراء بائسين مثقلين، وبدلًا من أن تواصل أفكارهم صعودها إلى الربّ، استأنفت مجراها الطبيعي البائس. والأنكى من ذلك أنّهم راحوا يعيدون

حساباتهم ويتبادلون التحسّر على ما أنفقوه للقيام بتلك الرحلة الفاشلة، وما أبلوه من ملابس في الطريق، وما خسروه من وقت وما ضيّعوه من أعمالٍ. كما أعرب فريق منهم عن خشيته من العودة ومواجهة سخريّة الفسّاق ومشاحنات الزوجات ونكدهنّ. في غضون ذلك، كان الحقدُ على بنيامين ينمو داخل صدورهم. وهم في ذلك لا يختلفون عن غيرهم من البشر. ففي كثير من الأوقات يُعلق الإنسان آماله على شخص ما كان قد ألهب خياله، ولكن عندما يخذله ذلك الشخص ويرميه مجدّدًا إلى ما كان فيه من ضعفٍ، يُصاب باليأس، ويحوّل حينئذٍ غضبهُ من خيبة أمله إلى حقدٍ أسود. نعم، لقد نما حقد داكن في صدورهم، وكبر وتعاظم، حقد على إخوتهم في روما، وعلى بنيامين، ذلك النبيّ الكاذب. وهب أنّه اختبر من قبل الربّ بقسوة، فإن ذلك يعدّ دليلًا على كره الربّ له وبرهانًا على كونه نذير شؤم. كذلك كانوا يردّدون فيما بينهم.

والحقّ أنّهم لم يتوانوا عن إظهار مشاعر حقدهم بوضوحٍ لبنيامين مارنفشاخ، عندما قدم إلى الكنيس مع نزول الليل، فلم ينهضوا مظهرين له الخشوع كما فعلوا في اليوم السابق، ولم يبتدروه بالتحيّة، بل أشاحوا بوجوههم عنه، على نحوٍ لفت انتباهه. ففيم يعنيهم أمر ذلك اليهودي العجوز القادم من روما؟! أليس هو الآخر رجلًا عاجزًا مثلهم؟ إنّ الربّ نفسه لا يأبه لمصيره مثلما لا يأبه لمصائرهم الحزينة!

ولم يغب ذلك عن بنيامين، فمنذ لحظة دخوله إلى الكنيس الصامت، شعر بما كانت تمور به صدورهم من احتقارٍ أخرس وحقدٍ أسود، ولاحظ بألمٍ كيف كانوا يخفضون رؤوسهم لكي يتفادوا النّظر إليه. ولشدّة ما أشعره ذلك بالاضطراب، وكأنّه مسؤول حقًّا عمّا كانوا فيه من إحباط، فدعا رئيس الجالية إليه، وطلب منه أن

يعلمهم بأنّ لديه ما يقوله لهم، فاستجاب الأخير وأخبر الجمع برغبة العجوز. فأدار اليهود رؤوسهم على مضضٍ وألسنة حالهم تردّد: هل ما زال لدى ذلك الغريب، ذلك النبيّ الكاذب، ما يقال؟ ومع ذلك، شعروا بالإشفاق عليه حين رأوه ينهض من مجلسه بصعوبة معتمدًا على عصاه. كان أكبرهم سنًّا، ومع ذلك، بقي منحنيًا أمامهم مثل مذنبٍ، قبل أن يقول بنبرة مجهدة:

-أيّها الإخوة، أنا ما قدمتُ هنا إلاّ لأودّعكم وأنحني أمامكم، بعد أن أحزنتُ قلوبكم عن غير قصدٍ. لقد ذهبتُ إلى الإمبراطور مكرهًا وأنتم تعلمون ذلك. ولكن هل كان من الممكن أن أرفض لكم طلبًا؟ إني أتذكر كيف انتزعني الشيوخُ من نومي، وأنا بعد صبيّ، وحملوني معهم دون أن يطلبوا إذني. وأتذكر أيضًا أنهم قالوا لي إني ما وجدتُ على هذه الأرض إلاّ لكي أحرّر الشمعدان. صدقوني يا إخوتي، ليس ثمّة أقسى على المرء من أن يدعو ربّه فلا يستجيب له. نعم، ليس ثمّة أقسى على المرء من وعود الربّ التي لا تنفّذ أبدًا. إنّه من الأفضل لرجل كهذا أن يبقى في الظلّ وألا يسأل عنه أحد أو يهتمّ لأمره. فسامحوني يا إخوتي. انسوا أمري ولا تشغلوا بالكم بمصيري. لا تذكروا اسمي على ألسنتكم، وقد اتضح لكم أني لستُ «المختار»، بل تواصوا بالصبر حتّى يأتي زمن ذلك الرجل الصالح الذي سيحرّر الشعب والشمعدان.

حالما أنهى كلامه انحنى أمام أفراد الجالية ثلاث مرّات، كأنّه مذنب يعترف بجريرته، ثمّ رفع يده اليسرى الواهنة فضرب بها على صدره ثلاث مرّات، وتوجّه نحو الباب، يجرّ يده اليمنى الخاملة الميتة. لم يردّ أحد على ما قاله، ولم ينهض أحد

لتشييعه، باستثناء يواكيم الذي لحق به عند العتبة، وقد تذكر فجأة أنّه ما أرسل على بيزنطة إلاّ لكي يساعد العجوز في شؤونه، لكنّ بنيامين نهره قائلًا بلهجة حازمة:

-أنت، عد إلى روما، فإذا سألك أحد عنّي، قل له إنّ مارنفشاخ مات وأنه لم يكن المختار. فلينسوا جميعًا اسمي، ولا يتلوا أيّ صلاة في ذكراي. أريد أن أبقى ميتًا بعد موتي وأن أختفي تمامًا من ذاكرة الرجال. أمّا أنت، فارحل بسلام ولا تهتمّ لأمري.

أطاع يواكيم العجوز وبقي واقفًا عند الباب، لكنه شعر بالقلق حين رآه يبتعد داخل الزقاق الضيّق ثمّ يسلك، بخطى متردّدة، الطريق المؤدّية إلى التلال. كان يريد أن يلحق به لكنّه لم يجد في نفسه الشجاعة الكافية، فاكتفى بتشييع العجوز بناظريه حتّى اختفي جسده المقوّس في الظلام.

***

وبينما راح بنيامين، في تلك الليلة، يضربُ في شوارع بيرا الضيّقة المتعرّجة على غير هدى، معذّب القلب، لا يدري إلى أين تحمله قدماه، ألفى نفسه يجذّف على الربّ لأوّل مرّة في حياته التي امتدّت إلى أكثر من سبع وثمانين عامًا، كان قد أمضاها هادئًا، مذعنًا لتعاليم الشريعة.

كان كلّ ما يفكر فيه هو أن يهرب من ذلك العار الذي لحق به بعد أن خدّر شعبه بأمل كذوب، وأن يختفي في أيّ مكان، حيثُ يموتُ مثل حيوانٍ، منسيًّا من الجميع. كان لا يني يردّد بداخله: «الذنب ليس ذنبي. لماذا انتظروا مني معجزة؟ لماذا اختاروني أنا؟ لماذا امتحنوني أنا؟»، ومع ذلك، عجز عن مواساة روحه المعذّبة. كان قد مضى عليه وقت طويلٍ وهو يمشي، ملتفتًا خلفه باستمرار خشية أن يتبعه واحد

من يهود بيرا، فتخاذلت قدماه من التعب، وارتجفت ركبتاه الواهنتان، وجرى العرق فوق جبينه المتغضّن وغمرت قطراته المالحة المرّة شفتيه ولحيته، وطفق قلبه يخفق بعنفٍ حتى كاد يخرج من صدره، لكن العجوز، معتمدًا على عصاه، واصل بلا كلل صعود الطريق المؤدية إلى الحقول، هناك بعيدًا عن متاهة العمران. بدا كالمطارد وهو يحثّ قدميه على السير حثًّا، لأنّ كلّ ما كان يرغبُ فيه في تلك اللحظة هو الهروب من الناس. كان يريد ألا يراهم مرّة أخرى وألا يروه، أن يهرب من مناطق عمرانهم، أن يداري وجهه عنهم ويُنسى وهكذا يتخلص مرّة واحدة وإلى الأبد من كابوس تحرير الشمعدان الجاثم على صدره.

وعلى ذلك النحو، واصل بنيامين صعوده، مترنّحًا كالسكران، حتّى إذا بلغ قلب الريف ومرتفعاته المحيطة بالمدينة، توقّف عن السير أخيرًا. كان قلبه ما يزال يخفق بعنفٍ فاعتمد على جذع شجرة صنوبرٍ وجذب نفسًا عميقًا. كانت الشجرة تظلل قبرًا لكنّه لم يدر بذلك. رفع عينيه وطفق يتأمّل المشهد أمامه: سماء صافية صفاء ليلة خريف متوسطية، بحر متلألئ مثل ظهر سمكة فضيّة عملاقة، انحناء قوس النصر على نفسه قرب منطقة القرن الذهبيّ، وكأنّه ثعبان يلتهم ذيله، بيزنطة النائمة تحت ضوء القمر الأبيض على ضفّة الخليج المقابلة، بقبابها وأبراجها المتلألئة، الميناء وأضواؤه اليتيمة، والسكون الجليل الذي بسط رداءه على كل شيء، بعد أن انتصف الليل وخمد كلّ نشاط بشريّ. بالقرب منه، كانت النسائم تشدو وسط أشجار العنب الناضج وتداعب أوراقها الصفر، فتشاغل بمتابعة الأوراق وهي تنفصل عن أغصانها، ثمّ تدور في الهواء ببطء قبل أن تبدأ رحلة نزولها لكي تستقرّ على الأرض بهدوء. في غضون ذلك، التقط أنفه رائحة حمضيّة قويّة، فأدرك أنّ هناك معاصر ومخازن للنبيذ في الجوار.

راح العجوز يستنشق روائح الخريف الرطبة العطنة المتصاعدة من الأرض بمنخريه المرتعشين. آه، لو كان في وسعه أن يمتزج بالأرض، وأن يسقط مثل تلك الأوراق ويموت! آه، لو كان بمقدوره أن يفنى، فلا يتألّم ولا يتعذّب، ويرتاح أخيرًا من أثقال روحه! كذلك ردّد في سرّه. كانت قد استحوذت عليه، وسط تلك العزلة الصامتة، رغبة عنيفة في الموت، فرفع رأسه إلى السماء وطفق يصلّي متفجّعًا: «أيّها الربّ، إني أريدُ أن أموتَ! لماذا أبقيتني في هذا العالم، عالةً على نفسي، وسلطت عليّ أبناء شعبي حتّى باتوا لا يخفون سخريتهم وخجلهم منّي؟ لماذا تبقيني حيًّا؟ أنت تعرف أن لا رغبة لي في هذه الحياة! لقد دفنتُ أبنائي السبعة، وكنتُ قد أنجبتهم أصحاء مقبلين على الحياة! لقد منحتني حفيدًا، شابًا طاهرًا، لم يقرب النساء أو يقبل على متع الدنيا، لكنك تركته للوثنيين يقتلونه. كلّا، لم يكن يريد أن يموت، كلّا، لقد ظلّ يعاني سكرات الموت ثلاث ليالٍ وأربعة أيّام، لكنّك أخذته منّي! لقد أخذت شابًّا يحبّ الحياة وأبعدت الموت عنّي أنا المتشوّقُ إلى قبر يضمّني! أيّها الربّ، ماذا تنتظرُ من عجوز لا يريد شيئًا من الدنيا؟ ماذا تنتظر من عجوز كلّ ما يتمناه هو انقضاء أجله؟ لقد خيّبت آمال كل الذين اعتقدوا فيّ وها هي ذي البشائرُ قد كذبت! أيّها الربّ، لقد اكتفيت! إني يائس فاقبض روحي! لقد عشت سبعًا وثمانين عامًا أنتظرُ أن يتحقّق المعنى من وراء حياتي المديدة وأن أترك ورائي مأثرة وحيدة هي ثمرة وفائي لك! أما الآن فلقد صرتُ مرهقًا جدًّا وفاضت كأسي، فخذ منّي يا ربّ هذه الحياة التي منحتها لي!».

كان العجوز يبذلُ نفسه في الصلاة، رافعًا صوتهُ وسط تلك العزلة، متوسّلًا نجوم السّماء التي بسطت نورها على كلّ شيء من حوله، فهل سيستجيبُ له الربّ أخيرًا؟ كذلك فكّر، ولبث في مكانه ينتظرُ إجابة السّماء بصبرٍ، إلى أن سقطت يده إلى

جواره بهدوء، فشعر حينئذٍ بإجهادٍ هائلٍ يغمر جسده، وراحت ساقاه ترتجفان وركبتاه تصطكان ونبض صدغيه يتسارع، إلى أن سقط على الأرض، خفيفًا وثقيلًا في آن، وغرق في خمول لذيذٍ مفاجئ، كأنّما أُفرغ جسده من الدماء. ولقد فتنته ما كان عليه من ضعفٍ فتمتم قائلًا بامتنان: «ها هو ذا موتي! لقد استجاب الربّ لي!»، ثمّ وضع رأسه بهدوء تقيّ على الأرض ذات الرائحة الخريفيّة، وغمغم بذهن مشوّش: «كان عليّ أن ألبس كفني». وما لبث أن سحب عباءته فغطى بها جسده، ثمّ أغمض عينيه منتظرًا قدوم موته المُشتهى. لكن الموت لم يأتِ في تلك الليلة للبحث عن الرّجل الذي اختبره الربّ بشدّة، بل النوم هو من استولى على جسده المرهق. كان نومًا هادئًا مليئًا بالرؤى والأحلام.

وهذا ما حلم به بنيامين مارنفشاخ في تلك الليلة من زمن محنته الأخيرة.

حلم أنّه يسير في شوارع بيرا المظلمة الحزينة، غير أنّه ألفاها -في الحلم- أكثر إظلامًا من ذي قبل، حتّى السّماء التي كان بوسعه أن يراها تمتدّ فوق أسطح المنازل وتلال الريف، ألفاها هي الأخرى مظلمة مكفهرّة. فجأة، انتفض في مكانه وقفز قلبه بين ضلوعه حين سمع وقع خطى وراءه. وكحاله في اليقظة، خشي أن يكون أحدهم قد تبعه، فحثّ قدميه على السير حثًّا، غير أنّ تلك الخطى راح وقعها يتردّد باطراد من حوله وسط تلك الظلمة، فأمعن النظر، لكنّه عجز عن تمييز أولئك البشر الذين كانوا يمشون على يمينه وعلى شماله ومن أمامه ومن خلفه. ومع ذلك، حدس أنّ الأمر يتعلّق بحشدٍ كبير كان يتقدّم في مسيرة، واستطاع بعد جهد أن يميّز الرجال من خطواتهم الثقيلة، والنساء من خطواتهنّ الخفيفة ورنين أقراطهنّ وهرولة أطفالهنّ، وأدرك أنّ شعبًا بأسره، شعبًا معذّبًا يائسًا، كان يسيرُ في موكبٍ في تلك

الليلة البرونزيّة التي غاب عنها القمر. كما تناهت إلى سمعه أصوات تأوهات صامتة وصلوات كانت تتردد باستمرارٍ داخل تلك الصفوف الشبحيّة، ففهم حينئذٍ، أن أولئك الناس كان يمشون منذ زمنٍ سحيقٍ وأنهم مرهقون من تيههم القسريّ وشكوكهم في الطريق التي يسلكونها، وتساءل في سرّه: «من يكون هذا الشعب التائه؟ ولماذا هو وحده من بين كلّ الشعوب قد عاقبته السّماء بحرمانه من رحمتها فلم يعرف الرّاحة؟ كان الحالم قد فشل في تخمين هويّة أولئك اللاجئين لكنّه، مع ذلك، شعر بشفقة أخويّة تجاههم، وانفطر قلبه لتأوّهاتهم المتفجّعة وأوجعه ما كانوا فيه من يأس وانتظارٍ، كانا يحوّمان من فوقهم، من مكانٍ خفيّ، ويكتمان أنفاسهم. فألفى نفسه يغمغم رغمًا عنه: « إن المرء ليعجز أن يسير في هذا الليل، على هذا النحو، إلى ما لا نهاية، وهو يجهل إلى أين يذهب! ليس بوسع هذا الشعب التائه المطارد أن يحيا دونما مأوى أو هدفٍ، وأن يستمرّ في رحلة تيهٍ أبدية وسط كلّ هذه المخاطر! على أحدهم أن يبادر بتوجيهه وإرشاده إلى وجهة معلومة وإلا ستثبط عزائم أفراده ويهلكون في تيههم! على أحدهم أن يتقدّم فينير طريقهم ويعيدهم إلى موطنهم! إن هؤلاء البشر يحتاجون إلى النور، وعلى أحدهم أن يمنحهم إيّاه!».

شعر بحرقة في عينيه من شدّة إشفاقه على ذلك الشعب البائس وهو يواصل مسيرته، متأوّهًا يائسًا، في تلك الليلة الصامتة العدائية. وبينما كان يفتّش يائسًا عن نهاية للأفق الممتدّ أمامه، إذ به يرى، أو هكذا اعتقد، شعاعًا ضئيلًا يكادُ يكونُ ضوءًا باهتًا أو شرارة، يرتعشُ في الظلمة من بعيد، فقال في سرّه: «يجب أن أتبعه حتى وإن اكتشفتُ أن الأمر يتعلقّ بجنيّة النّار. نعم، يجب أن أتبعه فلعلّ النور يسطعُ منه». لقد نسي بنيامين في حلمه أنّه كان عجوزًا طاعنًا في السنّ وطفق يجري مدفوعًا بما سرى في شرايينه من فتوّة الشباب، لكي يمسك ما خيّل إليه أنه شرارة، فانفلق الحشد

الداكن إلى نصفين وراح أفراده يتطلّعون إليه بريبة وهو يصرخُ فيهم قائلًا: «ألا ترون النور هناك؟».

لقد أراد أن يواسيهم لكنهم تطلّعوا إليه بجباه مقطّبة وقلوب يملؤها الأسف، وواصلوا طريقهم الكئيبة الحزينة. لم يكن أولئك المساكين قد رأوا ما رآه، ولعلّ مردّ ذلك، ما أعتم أعينهم من دموع وما شلّ أفئدتهم من حزنٍ دهريّ، كانوا قد أغرقوا فيه أنفسهم. أمّا هو، فلقد كان على العكس منهم، إذ كلّما تقدّم أكثر، صار قادرًا على تمييز النور، إلى أن رآه بوضوحٍ حين اقترب ممّا خيّل إليه أنه شرارة وخفق قلبه بعنفٍ. في تلك اللحظة، أدرك أن النور قادم من شمعدان سباعيّ. أدرك ذلك بقلبه لا بعينيه، لأنّه لم يكن قد رأى الشمعدان بعد. والحقّ أن الشمعدان كان على صورة الحشد تمامًا، إذ كان يتقدّم مثلهم في الظلام كأنما هو مدفوعٌ برياحٍ عجائبية خبيثة، وذلك ما يفسّر عدم رؤية شعلته من الأعلى، وارتجافها المستمرّ وشحوبها. في تلك اللحظة، قال الحالمُ لنفسه: «أي ضوء مبهرٍ سيخرج منه لو توقّف عن التقدّم؟ أي عزاء سيجده هذا الشعب المبتلى، وأيّ رخاء سيحظى به لو وجد مأوى ووطنًا؟! راح بنيامين، في حلمه، يتوغّل وسط الصفوف، كأنّما وُهب جناحين، حتّى إذا اقترب من الشمعدان وصار على بعد خطوات منه، تمكن من رؤية أسطوانته الذهبيّة ومواسيره وأكوابه ولهباتها السبع، وقد كانت تتمايلُ بفعل الرّياح التي راحت تدفع الشمعدان دون هوادة إلى ما وراء الجبال والبحار.

فجأة، صرخ الحالم متأوّهًا: «توقّف! توقّف! فهذا الشعبُ يموت! إنّه يحتاج العزاء في نورك! لا تتركه يهيم على وجهه إلى الأبد وسط هذه الظلمات!». لكنّ الشمعدان استمرّ في هروبه، وهو يرقّص لهباته بقسوة، فاستولى الغضب حينئذٍ على

ملاحقه الذي استجمع كلّ ما بقي له من جهدٍ، وقفز نحو الهارب ليمسكه. ولقد تمكن الحالم فعلًا من أن يلمس معدن الشمعدان البارد، وكاد أن يمسك بأسطوانته لولا أن صاعقة رعديّة عنيفة ضربته في تلك اللحظة وكسرت ذراعه قبل أن تلقي به على الأرض وهو يلهث من شدّة الألم. وما كادت شفتاه تنفرجان عن صرخة متألّمة طويلة حتّى سمع الشعب يردّد بصوت هادرٍ كأنما يحتجّ على تلك المظلمة الجديدة: « لقد فقدناه! لقد فقدناه إلى الأبد!».

فجأة، سكنت العاصفة، وارتفع الشمعدان، ثابتًا مستقيمًا، إلى السماء كأنّما ثبّت إلى قاعدة برونزية، وتوقّفت لهباته عن الارتجاف واستقامت وطفقت تتوهّجُ باطرادٍ، كأنّما بعثت الحياةُ في نورها المذهّب الذي راح يمزّق حجب الظلام. كان بنيامين ما يزال يرقد على الأرض، منزعجًا من سقوطه ومضطربًا، حين أدار عينيه مفتّشًا عن الحشد الذي كان يسير خلفهُ في ذلك الليل، لكنّه لم يرَ ظلالًا تتحرّك فوق الأرض الغارقة في الفوضى أو شعبًا تائهًا طوّح به الترحال وإنّما بلدة جنوبية هادئة خصبة، تطلّ على البحر ورأى أشجار نخيلها وأرزها تتمايل على مداعبات النسيم، وكرومها وسنابلها الناضجة ومراعي أغنامها وغزلانها الرّشيقة. رأى سكانها المسالمين وقد انصرفوا إلى أعمالهم، يسحبون الماء من النوافير أو يحرثون الأرض أو يحلبون الماشية أو يزرعون الحقول أو يزيّنون بيوتهم بأوراق الكروم والزهور الملوّنة. ورأى أطفالها وهم في لهوهم يغنون، ورعاتها وهم بين قطعانهم يعزفون على نایاتهم. ورأى ليلها ونجومها وهي تتلألأ بسلام فوق المنازل النائمة. فتساءل الحالم عندئذٍ بدهشةٍ: «ما هو هذا البلد؟ من يكون هذا الشعب؟ هل هو ذاك الذي رأيته قبل قليل يسير وسط الظلمات؟ هل وجد أخيرًا راحته ووطنه؟».

في تلك اللحظة، ارتفع الشمعدان أمام ناظريه إلى الأعلى وأشعّ بنوره على البلدة المسالمة، كأنّه الشمس، فتعرّفت الجبال على قممها البديعة، واستقامت مدينة بيضاء منيرة فوق قمّة تلّة، وارتفع من وسطها بناء هائل، ذو حجارة ضخمة، راح يطلّ على أسوارها المرتفعة. فتأرجح قلب النائم وهو يردّد مبهور الأنفاس: «لا بدّ أنّها أورشليم!». بعد ذلك، شاهد الشمعدان وهو يحلّق مسرعًا نحو المدينة، وعاين كيف انفلقت جدرانها، كأنّها شلالات مياه، وتركته يمرُّ حتّى وصل إلى الهيكل الذي راح يتألّقُ بضوء مرمريّ. فتأوّه بنيامين قائلًا: «ها هو ذا يعود إلى الهيكل. لقد حقّق أحدهم حلم حياتي وخلّص المينوراه. يجب أن أذهب لأمتّع عيني برؤيتها، أنا الشاهد الذي اختاره أسلافي. يجب أن أراها وهي ترتاحُ في خيمة الربّ». وعلى ذلك النحو، حملتهُ رغبته على جناح غيمةٍ، واستجيب لأمنيته، ففتحت الأبواب أمامه من تلقاء نفسها، ودخل قدس الأقداس، لكنه لم يستطع النظر إلى الشمعدان ونور لهباته السّاطع، وتأذّت عيناه، فأطلق حينئذٍ صرخة مريرة واستيقظ من حلمه.

***

لم يعد بنيامين إلى النوم. كان تعرّضه لصدمة الضوء المبهر قد آلمه وأحرق عينيه، فاضطرّ إلى إغلاقهما. ومع ذلك، ظلّ يشعر بنبضهما الأرجواني الحارق، فرفع يده السليمة لكي يحميهما فأدرك حينئذٍ أنّ ما كان يلهبهما هو نور الشمس وأنّه نام طيلة الليل في المكان الذي خيّل إليه أنّه مات فيه. كان نور الشمس المتسلّل من بين الأغصان قد أيقظه نهائيًا، فنهض مشوّش الذهن واعتمد بصعوبةٍ على جذع الشجرة، وحين فتح عينيه أخيرًا رأى البحر الأزوري الهائل يمتدّ أمامه، على الهيئة نفسها التي رآه عليها وهو صبيّ، وشاهد بيزنطة المشرقة ببياضها ورخامها، وهي

ترقد في الأسفل عند قدميه. فشعر حينئذٍ بأنّ العالم يبذل نفسه له، من خلال ألوان صباح ذلك اليوم الجنوبيّ وتفاصيله البديعة. «حسنًا! إنّ الربّ لا يرغب في موتي»، كذلك فكّر العجوز بإذعانٍ، ثمّ أحنى رأسه ودخل في الصلاة.

وحالما أنهى تضرّعه إلى الخالق، مانح الحياة ومقدّر الأمور حسب مشيئته وأوامره، شعر بأحدهم يلمس ظهره. وعندما التفت، ألفى زكرياء واقفًا وراءه. وفي الحال، أدرك بنيامين أنّ الصائغ كان يقف هناك منذ فترة طويلة وأنّه كان يحرسه بلا شكّ في نومه. استولت الدهشة على العجوز، وتساءل كيف اقتفى زكرياء أثره وعثر على مكانه، لكنه ما كاد يفتح فمه حتّى ابتدره الصائغ قائلًا بنبرة هادئة:

-كنتُ أبحث عنك منذ الفجر. لم أتوقف عن البحث عنك لحظة واحدة منذ أخبرني يهود بيرا أنّك سلكت طريق الهضاب. لقد قلقنا عليك حقًّا. ومع ذلك، لم أكن أخشى عليك من أي شيء، لأنّي أعرف أن الربّ يحتاجك. هيّا تعال إلى منزلي، فثمّة مهمّة أريد أن أعهد بها إليك.

فقال العجوز متسائلًا:

-أيّ مهمّة؟

وما لبث أن أردف بلهجة متعنّتة:

-لا أريد المزيد من المهام. لقد اختبرني الربّ بما فيه الكفاية.

كان بنيامين ما يزال واقعًا تحت تأثير حلمه المريح، فرأى نورًا رحيمًا يشعُّ من ابتسامة زكرياء كذلك النور الذي شاهده في منامه يشعُّ على تلك البلدة المسالمة، فلم

يستطع رفض طلب صديقه، ومن ثمّ نزلا معًا في اتجاه البحر، ومن هناك استقلّا قاربًا حملهما إلى الضفةّ المقابلة.

حتّى إذا بلغا مقرّ الإقامة الإمبراطورية، ألفى بنيامين بوّاباتها محروسة جيّدًا من قبل مجموعة من الضبّاط صارمي الملامح، وكم كانت دهشته كبيرة عندما تركهما الضبّاط يعبران البوابات ببساطة.

وما لبث أن شرح زكرياء الأمر له قائلًا:

-إنّ ورشتي تقعُ بجوار مقرّ الخزانة الإمبراطورية. ها نحن ذا قد وصلنا. في هذه الورشة، أعمل لفائدة الإمبراطور دون أن يراني أحد. وكما ترى أنا في مأمن من الأخطار. هيّا ادخل، وليكن قدومك إلى بيتي مباركًا! ثق أنّه لن يزعجنا أحد. فنحن هنا لوحدنا وسنظلّ كذلك!

عبر الرّجلان الورشة في صمتٍ، فسنحت الفرصة لبنيامين لكي يعاين المنحوتات المصنوعة بدقة وحرفيّة وهي تتألّق في العتمة. بعد ذلك، فتح زكرياء بابًا صغيرًا، كان مخفيًّا بإحكام، قادهما إلى غرفة منفصلة، كان الصائغ يستخدمها كغرفة نوم وكمكتب خاصّ في الآن نفسه. كانت نوافذها مغلقة مسيّجة، وجدرانها مختفية بالكامل في الظلام. وكان هناك أيضًا مصباح ألقي فوقه ما يشبه الغطاء فرسم دائرة ذهبيّة فوق سطح طاولة المكتب.

قال زكرياء لضيفه:

-اجلس. لا بدّ أنّك مرهق وجائع.

ثمّ عمد إلى الطاولة فأخلاها من الأغراض، ووضع فوقها خبزًا ونبيذًا وعددًا من الأكواب المنحوتة بأناقة، بعد أن ملأها بحبّات التمر والجوز واللوز، ثمّ رفع الغطاء قليلًا عن غطاء المصباح فاكتسح نورها الطاولة وأضاء يدَي بنيامين المتغضّنتين العظميتين اللتين شبكهما في تكاسلٍ.

-هيّا، كل يا صديقي!

كذلك قال له صديقه مشجّعًا. صحيح أنّ زكرياء كان رجلًا غريبًا عن ذاك الذي اختبره الربّ، لكن الأخير شعر بالألفة والعطف في صوتِ الصائغ، صوت أثّر فيه كأنّه نسيم قادم من بلاد بعيدة. فمدّ يده بسرور وأخذ بعض الفواكه، ثمّ عمد إلى الخبز فكسره ببطء، وطفق يترشّف النبيذ ذا اللون الأرجواني في رشفات قصيرة كتومة. شعر بالامتنان لذلك الاستقبال، فلبث ينتظر في صمتٍ أن يخبره زكرياء عن المهمة. كان ظلام الغرفة المحيط بدائرة الضوء التي رسمها المصباح على الطاولة قد أعجبه، وشعر في قرارة نفسه بأنّه يحب ذلك الرجل وكأنّه يعرفه منذ سنوات طفولته، حتى إنه راح بين الفينة والأخرى، يختلس بضع نظرات خجولة إلى وجه الصائغ المختفي في الظلام، وقد كان يجلس لحظتها قبالته. كانا مغمورين بتلك الوحدة الدافئة. وإذ أراد زكرياء أن يوطّد ما كان بينهما من حميميّة صامتة، عمد إلى غطاء المصباح

فنزعه، فغادر النور تلك البقعة الصغيرة فوق الطاولة، وغمر الغرفة بأسرها. وعلى ذلك النحو، استطاع بنيامين لأوّل مرّة أن يتفرّس في صديقه عن قرب، صديق لم يكن قد رأى منه قبل تلك اللحظة سوى وجهًا حسّاسًا، مريضًا، مرهقًا، وجهًا تملؤه التجاعيد كأنما حُفرت بإزميل قديمٍ لتظهر كلّ ما فيه من معاناة صامتة وصبر

هادئ دؤوب. وعندما رفع زكرياء عينيه لكي يتأمّل العجوز بدوره، شاهد فيهما العجوز بريقًا لطيفًا أخذ بلبّه.

منح الصائغ بنيامين ابتسامةً دافئة، فتشجع الأخير وقال لصاحبه:

– لم يعاملني الآخرون كما عاملتني أنت! إني أفهم أنّهم غاضبون منّي لأني لم أحقق أيّ معجزة، رغم أني ناشدتهم ألّا ينتظروا منّي شيئًا. أنت وحدك من يسّر لي المثول بين يدي جستنيان، وكنتَ طيّبًا معي. ومع ذلك، كان معهم حقّ حين سخروا منّي! لماذا أيقظتُ آمالهم؟ بل لماذا قدمتُ إلى هنا من الأساس؟ ولماذا مازلتُ حيًّا؟ هل أمدّ الربّ في أنفاسي لكي أرى الشمعدان وهو يواصل ترحالهُ ويهرب منّا؟

فردّ زكرياء وهو ما يزال يحتفظ بابتسامته الودود القويّة المهدئة:

–لا تقس على نفسك! ربّما كان الوقت ما يزال مبكرًا على استعادة الشمعدان، وربما كانت طريقتنا في تحقيق ذلك غير موفّقة. زد على ذلك، ما هي الفائدة من استعادة الشمعدان وهيكلنا ما يزال خرابًا وشعبنا ما يزال منفيًّا؟ لعلّ الربّ أراد أن يظلّ مصير الشمعدان محجوبًا عن شعبه. من يدري!

أسعدت تلك الكلمات روح بنيامين وشعر بالارتياح. وما لبث أن مال برأسه قائلًا، كأنّه يخاطب نفسه:

–اغفر لي يأسي. ها هي ذي حياتي تشارف على نهايتها. وأنا رجل صبر ثمانية وثمانين عامًا حتّى تعب قلبه من الانتظار. فمنذ أن حاولتُ إنقاذ المينوراه، وأنا بعدُ صبيّ، أنفقت عمري كلّه في انتظار أن أراها ثانيةً وأشهد تحريرها وعودتها إلى

أرضها. نعم، لقد رأيتُ أعوامي تمضي مني باستسلامٍ، وهأنذا الآن رجلٌ عجوز، فقل لي كيف سأعيش بأملي هذا أكثر ممّا عشت؟

-لن تنتظر بعد الآن، فعمّا قريب، ستتحقّقُ رغبتك.

رفع بنيامين عينيه، وقد خفق قلبه أملًا، فاتسعت ابتسامة زكرياء وأضاف يقول:

-ألم أقل لك أني سأعهد لك بمهمّة؟

-أيّ مهمّة؟

-المهمّة التي يحبّها قلبك.

ارتجف بنيامين، وارتعشت يداه، وقد كانتا ترقدان حتى تلك اللحظة فوق الطاولة بخمول، كأنّهما ورقتان تعبث بهما الرياح.

وما لبث أن سأل الصائغ قائلًا بارتجاف:

-هل تريد...تريد مني...أن...أذهب إلى الإمبراطور مرّة أخرى.

-كلاّ! فجستنيان لا يعود في قراراته أبدًا، ولن يعيد إلينا المينوراه مهما فعلنا.

-ما الفائدة إذن من البقاء في هذا العالم؟ ما الجدوى من الحياة؟ لماذا أبقى حيًّا، عبئًا على الجميع، وأثرنا المقدّس يرحل لكي يفقد هذه المرّة إلى الأبد!

حافظ زكرياء على ابتسامته، ابتسامة راحت تضيء فمه وعينيه باطراد، وهو يقول:

-لم نفقد الشمعدان بعد!

-كيف تعرف هذا؟ بل كيف يمكنك أن تقول هذا؟

-أنا أعرف. ثق بي!

-هل رأيته؟

-أجل. لقد رأيته في الخزانة الإمبراطورية قبل ساعتين من الآن.

-الآن؟ هل أخذوه؟

-لا! ليس بعد!

-حسنًا! قل لي أين هو الآن؟

لم يردّ زكرياء على الفور. كلّ ما حدث هو أنّ شفتيه المنفرجتين اختلجتا مرّتين، دون أن يصدر عنهما أيّ صوتٍ. وما لبث أن مال على العجوز فجأة، وقال له هامسًا، كأنّه يطلعه على سرّ خطير:

إنّه هنا عندي! قريبًا منّا!

وما كاد يقول ذلك حتّى قفز بنيامين من مقعده كأنّه تلقى ضربة على صدره وصرخ في الصائغ قائلًا:

-عندك!

-نعم، إنّه هنا في هذا البيت.

-هنا! في هذا البيت!

-نعم، إنه هنا في هذه الغرفة. ولهذا السبب خرجتُ أبحث عنك.

ارتجف بنيامين وقد هاله هدوء زكرياء. ودون أن يشعر، شبك يديه قبل أن يهمس بصوت لا يكاد يسمع:

-عندك؟ كيف يعقل هذا؟

-قد يبدو لك الأمر غريبًا، رغم أنّ لا شيء يدعو إلى الغرابة. أنا أشتغل صائغًا منذ ثلاثين عامًا، وكلّ ما يوجد في الخزانة الإمبراطورية يجب أن يمرّ على ورشتي وعلى يديّ أولاً. وكما هو الحال دومًا، كانوا سيعهدون إليّ بكلّ ما حصّله بيليساريوس من الوندال من غنائمَ لكي أقوم بتحديد قيمتها ووزنها. ولقد طلبت منهم أن أبدأ بمعايرة الشمعدان، فجلبه عبيد الخزانة الإمبراطورية إلى ورشتي، وسمح لي أن أحتفظ به لمدّة سبعة أيّام..

-وماذا سيحدث بعد ذلك؟

-ستحمله السّفينةُ إلى أورشليم.

حالما قال الصائغ ذلك، أسقط في يد بنيامين وشحب وجهه. هل قاده الربّ إلى هذه الورشة لكي يرى الشمعدان عن قرب ثمّ يشهد رحيله ثانيةً؟

ابتسم زكرياء ابتسامة ذات مغزى وأضاف قائلًا:

– لقد سمح لي كذلك بصناعة نماذجَ لكلّ كنوز الخزينة الإمبراطورية. وهذا أمر دارج عندهم. لطالما طلبوا مني أن أصنع نسخًا من الكنوز الفريدة لأنّهم يثقون بموهبتي. فعلى سبيل المثال، كنتُ قد صنعتُ تاج جستنيان على مثال تاج قسطنطين[73] وتاج ثيودورا على مثال تاج كليوباترا[74]. ولهذا طلبت منهم أن يسمحوا لي بصنع نسخة من الشمعدان قبل حمله إلى الكنيسة الجديدة، وسأشرع منذ اليوم في صنعه. لقد سخّنت البوتقات فعلًا، وكميات الذهب جاهزة، وبعد سبعة أيام، سأكون قد انتهيت من صنع الشمعدان الجديد على مثال شمعداننا، إلى حدّ يستحيل معه التمييزُ بينهما. سيكونان متطابقين وزنًا وهيئة وزخرفة. الفرقُ الوحيد بينهما، هو أنّ أحدهما مقدّس والآخر مدنّس. زد على ذلك، أنا وأنت الوحيدان اللذان سيعرفان من منها سيقع الاحتفاظ به هنا ومن سيرحل إلى المنفى.

توقفت شفتا بنيامين عن الارتجاف بغتةً، وسرى الدم دافئًا في شراينه وانبسط صدره وتوهّجت عيناه وانعكست ابتسامة صديقه على وجهه المسنّ المتغضّن. كان قد فهم ما رمى إليه الصائغ. سيحقّق الرجل ما حاول هو جاهدًا أن ينجزه بالأمس: استرجاع الشمعدان الذهبيّ وانتزاع الأداة المقدّسة من أيدي الكفّار. والحق أنّ إنجاز زكرياء، وهو إنجازٌ أوقف حياته كلّها على تحقيقه، لم يشعره بالغيرة، بل على العكس من ذلك، إذ أحنى رأسه بتواضع وقال لرفيقه:

(73) قسطنطين الأول (27 فبراير 272 – 22 مايو 337) إمبراطور روماني يعرف أيضا باسم قسطنطين العظيم..

(74) كليوباترا السابعة، ابنة بطليموس الثاني عشر المصري..

– حمدًا للربّ! في مقدوري الآن أن أموت، بعد أن عثرت على الدرب الذي أنفقت عمري عبثًا في البحث عنه. صحيح أنّ الرب اختارني، أمّا أنت يا زكرياء، فلقد باركك!

غير أن الصائغ قاطعه قائلًا:

–كلاّ! إذا كان ثمّة أحد يمتلك الحقّ في إعادة الشمعدان إلى موطنه، فهو أنت ولا أحد غيرك.

–لا! ليس أنا! فأنا رجل عجوز، وقد أموت في الطريق، فيسقط الشمعدان بين أيادٍ غريبة.

هزّ زكرياء رأسه بإصرارٍ، وقال بابتسامة واثقة:

–كلاّ! لن تموت. فكلانا يعرف أنّ حياتك لن تنتهي طالما أن الهدف منها لم يتحقّق بعد.

وما أن قال الصائغ ذلك حتى تذكر أن الربّ لم يستجب له عندما تضرّع إليه بالأمس لكي يقبض روحه. لعلّ الربّ ادخرني حقّا لمثل تلك المهمة وعليّ أن أنجزها! كذلك فكّر قبل أن يرفع عينيه إلى صاحبه ويقول له بتسليمٍ:

–لن أعترض على مشيئة الربّ. فإذا كان قد اختارني حقًّا لإنجاز تلك المهمّة، فلن يكون أمامي سوى الإذعان. هيّا اذهب واشرع فيما عزمت على فعله!

***

بقيت ورشة زكرياء مغلقة في وجه الجميع لمدّة سبعة أيّام. وطوال تلك المدّة، لم يضع الصائغ قدمًا خارج ورشته أو استجاب لطرّاق بابه. كان الشمعدانُ ينتصب أمامه، هادئًا مهيبًا، فوق قاعدة، كما في الأزمنة القديمة حين كان يزّين مذبح الربّ، فيما راح لهب الفرن يخفق في صمتٍ، ويلتهمُ حطام الخواتم والقلائد والأوسمة الذهبيّة. أمّا بنيامين فلقد لاذ بالصمت طوال تلك الأيّام السبعة، واكتفى بمتابعة المعدن المصهور وهو يسبحُ داخل البوتقة، قبل أن يراه، وقد صار سائلًا ذائبًا، يتدفّق داخل قالب أعدّ لاستقباله ثمّ يتصلّب بعد تعرّضه للتبريد. بعد ذلك، عاين كيف عمد الصائغ إلى كسر القالب بضربة حذرة من ملقاطه، فظهر هيكل الشمعدان الجديد، وبرزت أسطوانته من فوق قاعدة الحامل، قويّة مستقيمة، وقد تفرّعت منها سبع مواسير كأغصان الأشجار، تنتهي كلّ واحدة منها بكوبٍ معدّ لاستقبال شمعة. وبدأب لا يعرف الكلل، عمد الصائغ إلى مبارده وأزاميله، فراح ينقل ما كان يزيّن المينوراه المقدّسة من أكاليل ويعيد نحتها فوق سطح الشمعدان الجديد الأملس. كانت الأيّام تمضي، فيزداد الشمعدان الوليد شبهًا بالسّراج الألفيّ، حتّى صارا متماثلين تمامًا مع نهاية اليوم السّابع. في ذلك، اليوم وضعهما زكرياء إلى جانب بعضهما بعضًا، فبديا مثل توأمين، بسبب التطابق التامّ في أبعادهما ووزنيهما ولونيهما وخصائصهما، ومع ذلك، لم ين الصائغ عن المقارنة بينهما بعينه الخبيرة، أو إعمال مبارده وأزاميله الأكثر رهافةً ومضاءً نحتًا وتشذيبًا في تحفته العزيزة إلى قلبه، متى دعت الحاجة، حتّى إذا تأكد من تماثلهما التام، ومن عجز العين البشرية عن التفريق بينهما، خشي أن يخطئ بينهما، فعمد إلى أحد أزاميله للمرّة الأخيرة، ووضع علامة خفيّة وسط إحدى زهرات الشمعدان، لكي يتمكن من تمييز تحفته عن شمعدان الشعب والهيكل.

وعندما فرغ من كلّ ذلك، تراجع إلى الوراء قليلًا، وتأمّلهما للمرة الأخيرة، ثمّ نزع مئزره الجلديّ وذهب ليغسل يديه. وحالما انتهى من ذلك، عاد إلى بنيامين وخاطبه للمرّة الأولى منذ سبعة أيام فقال له:

-لقد انتهت مهمتي لتبدأ مهمّتك الآن. ستأخذ شمعداننا وتفعل به ما تريد.

غير أنّ بنيامين أدهشه حين أعرب عن رفضه قائلًا:

-عندما كنت تعمل خلال الأيام السبعة الأخيرة، كنتُ أنا أناجي قلبي وأستجوبه. إني لأخشى أن يتسلّل خطأ ما إلى خطّتنا، هذا لأنّك أخذت شيئًا من أولئك الذين وثقوا بك وستعيد لهم شيئًا آخر. كلاّ! يجب ألاّ نعيد لهم الشمعدان المزّيف ونحتفظ نحن بالحقيقي. لقد حصلنا عليه بطريقة غير مشروعة والربّ لا يحبّ الخداع. لا تنسَ أنّ الربّ كسر ذراعي صبيًّا لأنّ يدي امتدّت إلى شمعدان أسلافنا. أعرف أنه يكره الاحتيال، مثلما أعرف أنه يسلّط اليبس على أرواح المحتالين.

راح زكرياء يقدح زناد فكره قبل أن يقول:

-ولكن هب أنّ أمين الخزانة اختار المزيّف من بينهما؟

فرفع بنيامين رأسه وردّ:

-إنّ أمين الخزانة يعرفُ أنّ أحدهما قديم والآخر جديد. فإذا طلب منّا الشمعدان الحقيقي، فسيكون علينا أن نعيده له. في غضون ذلك، إذا أراد الربّ ألاّ يدقّق النظر أو ألا يميل قلبه إلى واحد منهما، باعتبارهما متماثلين وزنًا، فلن نكون حينئذ قد ارتكبنا

فعلًا مشينًا باحتفاظنا بالشمعدان الحقيقي. على الأقلّ، هذا ما أعتقده. فإذا ما اختار شمعدانك، فسنرى في ذلك إشارة إلهية. وعلى أيّ حال، القرار لا يعود لنا.

أرسل زكرياء عبدًا في الحال إلى أمين الخزانة، فقدم الأخير، وقد كان رجلًا بدينًا مرحًا، متورّد الخدّين، وله عينان صغيرتان، مدورّتان نشيطتان. والحقّ أنه ما كاد يدلف إلى ردهة الورشة حتّى طفق يتفحّص بعينين خبيرتين، كوبين من الفضة، كان الصائغ قد انتهى من نحتهما قبل فترة طويلة، ويقرعهما بإصبعه في رقّة، مأخوذًا بزخرفتهما الأنيقة. ثمّ عمد إلى المنحوتات الموضوعة فوق الطاولة فراح يتطلّع إليها بفضولٍ، الواحد تلو الأخرى، تحت الضوء المصباح. وعلى ذلك النحو، ظلّ يدقق في جميع أعمال الصائغ، سواء المنتهية منها أو التي ما زالت في طور الإعداد، باستمتاعٍ لا يخلو من انفعال، فاضطرّ زكرياء إلى توسّله لكي يتقدّم ويعاين الشمعدانين، الألفيّ والوليد، وقد كانا ينتصبان إلى جانب بعضيهما بعضًا، مهيبين مشرقين، فوق محمليهما.

فاقترب أمين الخزانة حينئذٍ من الشمعدانين وراح يدقّق فيهما النظر. الحقّ أن قلبه الخبير لم يطق صبرًا على اكتشاف عيبٍ أو فرق خفيّ يمكنه من تمييز النسخة عن الأصل، فطفق يديرهما بعناية تحت الضوء، مغيّرًا الزوايا في كلّ مرة، ويزنهما ويفرك ذهبهما، قبل أن يتراجع إلى الوراء، ثمّ يعاود الاقتراب منهما، لكي يدقّق فيهما النظر أكثر، حتى أنه استعان بعدسة مبكرة، لكي يقارن بين خطوطهما وثلماتهما. وعندما فشل في اكتشاف أيّ فرق بينهما، شعر بالإرهاق وتخلّى عن تدقيقه غير المجدي، قبل أن يلتفت إلى زكرياء ويضرب على كتفه قائلًا:

-أنت معلّم يا زكرياء، بل أنت كنزٌ من كنوزنا. يدك ماهرة إلى حدّ يعجز المرء معه عن تمييز الشمعدان الجديد عن القديم. تقبّل تهانيّ، يا صديقي العزيز!

كذلك قال وابتعد بلا مبالاة ناحية المنحوتات لكي يختار واحدة منها له، لكن زكرياء ناداه قائلًا:

-قل لي إذن، في أيّ الشمعدانين ترغب؟

فردّ أمين الخزانة خالي البال تمامًا:

-أعطني ما تريد أن تعطيني إياه، فالأمر ليس مهمًّا في نظري!

في تلك اللحظة، شعر بنيامين بالقلق والخوف، فغادر مكمنه وخاطب أمين الخزانة قائلًا:

-إننا نتوسّل إليك يا مولاي أنت تختار واحدًا من بينهما!

تطلّع أمين الخزانة إلى العجوز الغريب بدهشةٍ واضحة ولسان حاله يردّد: ما الذي جاء بهذا الشخص الغريب إلى هنا، ولماذا يتوسّل إليّ هكذا بعينيه الحادّتين الحائرتين؟ غير أنّه ما لبث أن تجاوز دهشته وقفل عائدًا نحوهما. كان رجلًا رقيق القلب مهذّبًا، فلم يطق ألاّ يلتفت إلى توسّلات ذلك العجوز، ومن ثمّة التقط عملة معدنيّة صغيرة بمرحٍ وألقاها في الهواء، ثمّ تابعها وهي تسقط على الأرض وتدور حول نفسها ثلاث مرّات، قبل أن تميل، وتكمل دورة أخيرةً ثمّ تهمد على يساره. فابتسم حينئذٍ وأشار إلى الشمعدان الموضوع في تلك الناحية، قبل أن يقول: «حسنًا!

سآخذ هذا»، ثمّ نادى على عبيده وأمرهم أن يحملوا الشمعدان إلى الخزانة الإمبراطوريّة.

وبينما هرع الصائغ باحترام بالغٍ إلى حاميه فشيّعه إلى باب الورشة، وهو يمطره بعبارات الشكر، لبث بنيامين في مكانه، يربّت على الشمعدان بيدٍ مرتجفة. ها هو ذا يقف أخيرًا أمام المينوراه المقدّسة بعد أن اختار أمين الخزانة الشمعدان المزّيف وحمله إلى إمبراطوره!

عاد زكرياء، فألفى بنيامين ثابتًا في مكانه أمام الشمعدان، وهو يكاد أن يلتهمه بعينيه. وعندما استدار العجوز أخيرًا نحوه، خيّل إليه أنه رأى انعكاس الشمعدان الذهبّيّ وهو يتراقص في حدقتيه. وبسكينةٍ، غالبًا ما يصبّها في القلب عزمٌ صريح، قال بنيامين مارنشفاخ للصائغ:

-فلينعم الربّ عليك ببركته يا أخي! الآن، عليك أن تجد لي تابوتًا!

-تابوت؟

-لا تتفاجأ. فطوال سبعة أيّام وسبع ليالٍ، فكرت مليًّا في الطريقة التي يمكن أن نعيد بها السّلام إلى الشمعدان. ولقد فكرت مثلك في أوّل الأمر، فقلتُ لي إنّنا إذا نجحنا في تحريره، فسنعيده للشعب الذي سيحرسهُ كما يحرسُ أكثر ممتلكاته قداسة. ولكن أين هو شعبنا وأين يقيم؟ حيثما نزلنا، كنا إما نطرد أو يسمح لنا بالبقاء إلى حينٍ، ولهذا نحن بلا وطنٍ يمكن أن يحيا فيه الشمعدان بأمان. كلّما امتلكنا بيتًا إلا وطردنا منه، وكلّما بنينا هيكلًا إلا وتمّ تخريبه. إنّ الشمعدان لن يعرف الراحة طالما بقي العنف سيّدًا بين الناس. ولذا أرى أنّ السلام يكمنُ تحت الأرض، حيث يرتاح

الموتى، وحيث يكون الذهب بمنأى عن اللصوص فلا يثير طمعهم. فلتجد المينوراه الراحة إذن هناك، ولتدفن بعد كلّ هذا الترحال.

حالما أنهى العجوز كلامه، قال زكرياء، وقد بدت الدهشة على ملامحه:

-هل تريد أن تدفن الشمعدان إلى الأبد؟

-هل في قدرة الإنسان أن يتخيّل كيف تبدو الأبدية؟ كيف بوسعي أن أضع أنا العبد الضعيف حدّا لشيء ما أو لأمر ما، بينما أجهل حدود حياتي نفسها؟ صحيح أنّ بوسعي أن أمنح الشمعدان الرّاحة، لكن الربّ وحده هو من يعلم كم ستدوم. نعم، إني أستطيع إنجاز هذه المهمة، لكني عاجز عن تقدير عواقبها أو قياس مدّتها، مدّة قد تكون قرونًا أو قد تمتد إلى نهاية الزمان. واعلم أن للربّ وحده الحق في تحديد مصير الشمعدان. أمّا أنا، فكلّ ما سأفعله هو دفنه لأني لم أعثر على طريقة فعّالة تمكننا من حمايته. الحق إني لا أعرف كم سيدوم ذلك من وقت، ولا أحد منا يدري. ربّما تركه الربّ القدير يرقد في الظلمات إلى الأبد، وترك شعبنا المشتت كذرّات الرمل يواصلُ تيهه البائس في العالم. وربّما يحدث العكس أيضا! وههنا لا أخفيك سرًّا حين أقول لك أن عودة شعبنا إلى أرضه تظلّ رهينة بمشيئة الربّ. كن واثقًا من أن الربّ إذا قرّر أن يعود شعبنا، فإنه قد يختار رجلًا يهوي على الأرض بجاروفه فيعثر-بضربة حظّ- على المينوراه، ويخرجها من مدفنها. نعم، ملثما اختارني لدفنها، قد يختار رجلًا آخر لإخراجها، فلا تدع قراري يقلقك. فوّض هذا الأمر للربّ والزّمن! وثق يا صديقي أن الذهب ليس كمثل جسد الإنسان، فهو لا يتحلّل في جوف الأرض. إنّه كشعبنا الذي عبر العصور ولم يندثر. نعم، الشعب والشمعدان، هما الاثنان سيبقيان.

فلنؤمن معًا بأنّ الدفين سيبعثُ يومًا ويشعّ على الشعب بعد أن يجد موطنه. وثق من هذا جيّدًا: طالما أنّنا نتواصى بالإيمان، فإن شعبنا سيصمد في وجه المحن!

حالما أنهى بنيامين كلامه، سرح الرجلان بنظراتهما كأنّهما ينظران إلى البعيد. وما لبث العجوز أن كسر الصمت قائلًا:

- جدْ لي تابوتًا الآن!

***

أحضر الصائغ تابوتاً من النوع العادي على نحو ما أحبّ بنيامين وأراد. كان من الدارج في ذلك الزّمن أن يُرى الحجاج وهم يحملون معهم تابوت قريبٍ أو سلفٍ إلى الأرض المقدّسة، ولذلك أصرّ العجوز على اختيار تابوتٍ عاديّ حتى لا يثير انتباه الفضوليين وهو في طريقه إلى أورشليم. وفضلًا عن ذلك، كان العجوز يرغبُ في أن يرقد الشمعدانُ بأمانٍ بين الموتى الذين لا يعنيهم طمع الأحياء.

وعلى ذلك النحو، وضع الرجلان -بتقوى شديدة- المينوراه داخل الصندوق الجنائزيّ المصنوع من خشب الأرز، بعد أن لفّا بعناية بالغة مواسيرها المذهبة بالأوشحة الحريرية، ولفّاها هي بأقمشة ثقيلة من الديباج، كانت تستخدمُ قديمًا في لفّ التوراة، كتاب الربّ، وملآ فراغات التابوت بالكتّان والقطن، لكيلا يصدرُ الشمعدان الذهبيّ، عند نقله، أيّ صوتٍ في صورة احتكاكه بالخشب ويفتضح سرّه.

على أنّهما لم يقدرا على منع نفسيهما من الارتجاف وهما يرقدان المينوراه بحرصٍ داخل مهد الموتى، ففي تلك اللحظة، فكرا مذهولين في أنّهما قد يكونان آخر من يلمس شمعدان موسى المقدّس في صورة ما إذا أراد الربّ أن يظلّ الشمعدان مخفيًّا

عن أنظار شعبه إلى الأبد، ولذا عمدا إلى ورقة من الرقّ الخشن فكتبا فوقها أنّ بنيامين مارنفشاخ، من نسل أبثاليون، وزكرياء الصائغ، من نسل بن هلال، يشهدان بأنّهما وضعا بأيديهما المينوراه المقدّسة في ذلك التابوت، في العام الثامن من حكم جستنيان، في بيزنطة، وذلك حتّى يعرف من سيقوم بإخراجها من مدفنها، ذات يومٍ، أنّ الراقد في التابوت هو حقًّا شعلة الشعب الحقيقية. بعد ذلك، طويا الرقّ ووضعاه داخل غمد نحاسي، أحكم الصائغُ إغلاقه تحسّبًا من الرطوبة والعفن، ثمّ ربطا الغمد إلى أسطوانة الشمعدان بسلسلة ذهبيّة، لكي يعثر عليهما معًا. وحالما فرغا من ذلك، أحكما إغلاق التابوت بالمسامير، وغادرا الورشة.

لم يتبادلا أيّ كلمة في الطريق حتّى إذا بلغا السفينة التي ستقلّ بنيامين والتابوت إلى يافا[75]، عانق زكرياء صديقه الذي اختبره الربّ، وقال له:

-ليساعدك الربّ ويحميك! ليسدّد خطاك ويبارك عملك! لقد كنّا حتّى هذه السّاعة آخر من اطلع على ما عاشه الشمعدان من ترحالٍ، ولكن ابتداء من هذه اللحظة، ستكون وحدك!

كانت الريح تنفخ في أشرعة السفينة في تلك اللحظة، فأحنى بنيامين رأسه وقال بإشفاق:

-لن أكون وحدي إلاّ لزمنٍ قصيرٍ. والحق أني لا أعرف أين ستستقرّ المينوراه بعد ذلك، فهذا الأمر موكول لمشيئة الربّ وحدها.

***

(75) يافا هي من أقدم وأهم مدن فلسطين التاريخية.

وكما جرت العادة عند اقتراب السفن من ميناء يافا، تجمّع عدد كبير من الفضوليين عند الشاطئ لتحية الوافدين ورؤيتهم عن قرب، وكان من بينهم يهودٌ تعرّفوا بسهولة إلى بنيامين، نظرًا لقدرتهم الفائقة على تمييز أبناء عرقهم. وعندما أنزل البحارة التابوت وساروا به وراء بنيامين، اندفعوا جميعًا، فيما يشبه الاتفاق الضمني بينهم، وأحاطوا بالنعش، على نحوٍ عفويّ، ثمّ ساروا خلفه في موكبٍ خاشعٍ. كانت عقيدتهم تحضّهم على تشييع الموتى في رحلتهم الأخيرة، والمساعدة على دفنهم، حتى وإن كانوا لا يعرفونهم، لأنّ ذلك العمل يعدّ عندهم عملًا من أعمال الخير التي ترضي الربّ. ولذلك ما إن سرى بين يهود المدينة خبر ذلك التابوت القادم من البحر برفقة أحد أبناء ملّتهم، حتّى سارعوا جميعًا إلى أداء واجبهم المقدّس، فتركوا أعمالهم، وهبّوا من كلّ شارع وزقاق، لتشييع التابوت، وراحت أعداد المشيّعين تتزايد باطراد حتّى بلغ بنيامين الخان، حيث قرّر قضاء ليلته. وما لبثوا أن كسروا صمتهم، بعد أن امتثلوا لرغبة العجوز الغريبة ووضعوا التابوت قرب سريره، فحيّوا أخاهم في العقيدة وباركوا مقدمه، ثمّ سألوه من أين قدم وإلى أين سيذهب. فأخبرهم بنيامين باقتضابٍ أنّه جاء في مهمّة وحيدة وهي دفن التابوت. لم يكن مسموحًا له أن يقول أكثر من ذلك فاستأذنهم ألا يسألوه ما لا طاقة له بالإجابة عنه. وعلى ذلك النحو سدّ الطريق أمام أسئلتهم المتطفّلة. في واقع الأمر، كان بنيامين يخشى أن يكون بعضهم على إطلاع بما حدث في القصر الإمبراطوريّ فيتعرّف عليه، مثلما كان يخشى أن يتحدّث لسانه فيذكي آمال إخوته الحارقة أو أن يضطرّ إلى الكذب أمامهم وهو على بعد خطواتٍ من الشمعدان.

ولقد نجح فعلاً في تحويل انتباههم عندما سألهم أن يدلوه على الأماكن المقدّسة لكي يتسنّى له دفن التابوت في إحداها، فابتسم يهود يافا عندئذٍ بكبرياء صامتٍ

وأخبروه أنّ البلد بأسره يعدُّ مقدّسًا عندهم، ومع ذلك، أشاروا عليه ببعض الأماكن المنتشرة في المغاور والحقول- وهي أماكن كانوا يميزونها بعلامةٍ هي عبارة عن ركام من الحجارة غير المصقولة- حيث يرقد أسلافهم وأحبارهم وأمهات أسباطهم وأبطالهم وملوكهم، وامتدحوا له فضائلها ومزاياها، وأخبروه أنّه لا يوجدُ رجل صالح واحد من بينهم لم يذهب إليها طلبًا للعزاء والمواساة.

كان العجوز قد فاز باحترامهم، واستشعرت أرواحهم فيه المهابة، فراح كلّ واحد منهم يعرض عليه أن يدله إلى واحدة من تلك الأماكن المقدّسة وأن يساعده على دفن الميّت المجهول ومشاركته الصلاة، لكن بنيامين آثر أن يحافظ على سرّ الشمعدان، فرفض عروضهم وصرفهم شاكرًا.

وما إن خلا إلى صاحب الخان حتّى عرض عليه مبلغًا سخيًّا مقابل أن يوفرّ له في صباح اليوم الموالي بغلةً وعبدًا له دراية بالطرق وقويًّا كفايةً لكي يساعده على حفر القبر فوعده المضيّف بأن يضع على ذمّته، مع شروق الشمس، خادمه الخاص ليرافقه حيثما يريد.

أمضى بنيامين مارنشفاخ آخر ليلةٍ له في خان يافا نهبًا لمشاعر القلق والخوف والعذاب، وعاودته الشكوك في سلامة قراره حتى اغتمّ لذلك كثيرًا. كان لا يني يسأل نفسه: هل كان محقًّا عندما أخفى عن إخوته خبر تحرير الشمعدان وعودته إلى أورشليم، حيث قدّر له أن يدفن تحت الأرض؟ لقد عاين كيف كان أولئك المعذبون يجدون عزاءهم في زيارة قبور أجدادهم والتبرّك بعظامهم، فماذا لو اكتشف الشعب المضطهد، المنفي، المشتت، بين الجهات الأربع التي تهبّ منها الريح، أن الشمعدان، رمز وحدهم، لم يفقد كما يعتقدون، وإنّما حرّر وعاد إلى وطنه الأمّ لكي يمكث في

بطن الأرض بأمان في انتظار تحرير أورشليم؟ لا شك أنّهم سيبتهجون لذلك ابتهاجًا عظيمًا! كذلك فكّر محزونًا.

كان رأسه يمور بالتساؤلات، فهتف وقد عذّبه الأرق: «هل من حقي أن أكتم هذا السرّ عن الجميع؟ هل من حقّي أن أحمل إلى الموتى ما كان قادرًا على دفع الفرح والأمل إلى قلب شعبٍ بأسره؟ إني أعرف أن الآلاف المؤلّفة منهم متعطشّة إلى المواساة، فكيف سيكون مصيرهم، وأنا أتركهم نهبًا للانتظار والظنون إلى الأبد؟ كيف سيكون مصيرهم، وأنا أتركهم يضعون إيمانهم في التوراة بلا أملٍ في الخلاص؟ أعرف أنّ صمتي كان ضروريًّا للحفاظ على الشمعدان ولكن... آه! ساعدني أيّها الربّ على تجاوز محنتي! قل لي ما الذي يتعيّن عليّ فعله مع إخوتي! هل أرسل خادم مضيّفي إليهم، حالما ينتهي من إغلاق القبر، ليخبرهم أنّه يضمّ بين جنباته الحقّ المقدّس فيتعزون حينئذٍ وتطمئن قلوبهم؟ أم هل يجب عليّ أن أغلق فمي إلى الأبد حتّى لا يعرف أحد غيرك موقع القبر؟ أيّها الربّ، قرّر في مكاني! لقد أرشدتني في السابق، فأرشدني مرّة أخرى! افعل أي شيء حتى لا يكون القرار قراري وحدي!».

كان قلبه يضجُّ بالمعاناة لكنّ الليل من حوله ظلّ محافظًا على صمته. جافاه النوم تماماً وعجز عن إغلاق جفنيه الملتهبين، فبقي على حاله تلك، ممدّدًا على السرير حتّى لاحت أولى تباشير الصباح. كان كلّما طرح على نفسه واحدًا من أسئلته الكثيرة تلك، إلا وألفى نفسه يتخبط أكثر فأكثر داخل شركٍ لا فكاك منه، حتّى أعتم قلبه تمامًا بينما كان نور الفجر يتوهج في جهة الشرق. في تلك اللحظة، دخل عليه صاحب الخان وعلى ملامحه أمارات حيرة واضحة، وابتدره قائلًا:

-أرجو أن تغفر لي لأني لا أستطيع أن أرسل معك الدليل الذي وعدتك به. فلقد وقع خادمي ليلة أمس مغشيًّا عليه حتّى خرج الزبد من فمه، وها هو ذا يرقد الآن في ناحية من نواحي البيت نهبًا للحمّى والهذيان. إذا أردت سأرسل معك عبدًا آخر، لكن يجب أن تعلم أنّه لا يعرف البلاد وهو فوق ذلك أبكم. لقد أغلق الربّ فمه منذ ولادته. إذا أردت سأرسله معك.

لم يلتفت بنيامين إلى ضيفه وإنما رفع عينيه إلى السماء بامتنانٍ. ها هو ذا الربّ يجيبه ويرسل إليه أبكمَ، لا يعرف المنطقة، لكي يبقى موقع الدفن سرًّا إلى الأبد.

وعندما استرجعت روحه طمأنينتها، التفت إلى صاحب الخان فشكره قائلًا:

-قل للرجل أن يأتي. لا تقلق، سأعثرُ على طريقي!

***

أمضى بنيامين النهار بطوله وهو يسيرُ إلى جانب رفيقه الأبكم وجاروفه المعلّق على كتفه، والصمت يلفّهما من كلّ جانبٍ. وكانت البغلة التي ثبّت التابوت فوق ظهرها بالعرض تتبعهما بخطى هادئة منتظمة. أحيانًا، كان العجوزُ يمرّ أمام أكواخ فقيرة متربة، كانت تنتصب على حافتي الطريق، فيحثّ قدميه على السير أكثر دون أن يتوّقف عندها. وأحيانًا أخرى، كان يلتقي بمسافرين على الطريق، فيلقي عليهم السلام، متجنبًا الخوض في حديث من أي نوعٍ معهم. الحقّ أنه بدا حريصًا على إتمام مهمته ودفن الشمعدان. ولكن أين؟ ذلك ما كان يجهله حتّى تلك الساعة. وإذ شعر بخوف مبهم يستولي عليه ويمنعه من اختيار المكان بنفسه، ألفى نفسه يتمتم في سرّه:

«حسنًا! سيرسل لي الربّ إشارةً أخرى. كلّ ما عليّ فعله هو الانتظار حتّى تتجلّى إرادته».

واصل الرجلان تقدّمها حثيثًا في جوف الريّف الذي أخذ يظلمُ من حولهما رويدًا رويدًا. كان الليلُ قد بدأ في بسط جناحيه وراء الهضاب القريبة، وكانت السماء قد ادلهمت بغيوم ثقيلة راحت تفرّ في شتى الاتجاهات، كأنّما جنّت، وتحجب هالة البدر المطلّ على التلال.

كان العجوز ومرافقه الأبكم على بعد ساعة أو ساعتين من أقرب مأوى، لكنها واصلا طريقهما قدمًا، والبغلة تخبّ في إثرهما بهدوء.

فجأة، أبطأت البغلة سيرها ثمّ توقفت تمامًا، فعمد العبد إلى لجامها فشدّه ليجبرها على التقدم، لكن الدابة العنيدة، سمرت قائمتيها الأماميتين في الأرض، وراحت تجذبه إلى الخلف وهي تصرّ على أسنانها بغضبٍ. كان واضحًا أنّها ترفض التحرّك من مكانها، لكنّ الأبكم الحانق، سحب جاروفه وهمّ بضرب الحيوان الحرون على جانبيه، لولا تدخّل العجوز الذي أمسك به من ذراعه وأمره بأن يصبر وأن يترك البغلة ترتاحُ قليلًا.

«لعلّ توقفها هو الإشارة المنتظرة»، كذلك فكر بنيامين في سرّه وهو يجيل بصره فيما حوله. ألفى نفسه وسط وادٍ مظلمٍ مهجور، لا يُرى فيه كوخٌ أو منزل، على امتداد البصر، فأيقن أنّه ابتعد عن الطريق المؤدية إلى أورشليم. تطلّع في الوادي من حوله، وشعر بأنّه وقع على مكان ملائم لإتمام مهمته السرية. سبر الأرض بعصاه، فاكتشف أن تربتها غنية، صلبة، خالية من الصخور. فكر أنّه سيكون بوسع رفيقه أن يحفر فيها

حفرة عميقة في أقلّ وقتٍ ممكن، فيما ستتكفّل الهضاب المحيطة بحمايتها من العواصف الرمليّة التي تخفي سريعًا كلّ أثر. كلّ ما بقي أمامه هو اختيار مكان الدفن المناسب. تطلّع من حوله، وعن يمينه وعن يساره، ثم اتخذ قراره. كان قد أبصر شجرة ظليلة تقف وسط الحقول على مرمى حجرٍ من الطريق. ولشدةّ ما استغرب حين ألفاها تشبهُ، شكلًا وحجمًا، شجرة هضبة بيرا، تلك التي نام تحتها وحلم أنّه كلّف بحماية الشمعدان. وإذ تذكر حلمه، عادت إليه طمأنينته، فأمر الأبكم بأن يفصل في الحال التابوت عن ظهر البغلة. وما كاد الأخير يفعل ذلك حتّى حرّرت الدابة أطرافها وركضت في اتجاه بنيامين العجوز حتى شعر بأنفاسها الدافئة وهي تلفح وجهه. في تلك اللحظة، تعززت قناعته بأنه عثر على المكان المناسب، فأشار على العبد الذي طفق يحفر بشجاعةٍ. تعالت صلصة الجاروف واستمرّ الأبكم يحفر الأرض بنشاطٍ وهمّة حتّى إذا بلغ العمق المنشود، أمره بنيامين بأن يدخل التابوت إلى الحفرة. كان العبد خالي الذهن تمامًا، فلم يشكّ في الأمر وهو يحمل بين ذراعيه العريضتين القويتين التابوت الثقيل ويتوجّه به إلى الحفرة حيث قام بإنزاله بحذرٍ شديد. لقد بدا الشمعدان أقرب إلى حبّة لوزةٍ ذهبية محبوسة داخل قشرتها الخشبية وهو يرقدُ داخل الحفرة التي سيهالُ عليها التراب بعد قليل، تراب حيّ خصب منذورٌ للاخضرار، مثل المينوراه، تلك المنذورة للأبدية.

حنى بينيامين رأسه باحترام بالغٍ أمام الشمعدان الراقد في الحفرة، ثمّ همس قائلًا: «أنا آخر الشهود على مغامرات شمعداننا. أنا آخر من رآه وآخر من يعرف موقع دفنه». أثقلت تلك الفكرة عليه حتّى ارتجف جسده لهولها، ولكن حدث في تلك اللحظة ما لم يتوقعه العجوز، إذ تبددت الغيوم فجأة، وظهر القمر، وغمر الأرض نورٌ أبيض عظيم، حتّى بدا الأمر كأنّ حدقةٍ عظيمة تشعّ بنورها على كلّ الموجودات.

لم تكن حدقة بشرية تظللها رموش رقيقة مرتجفة، وإنما شيئًا آخر تمامًا، شيئًا دائريًّا، باردًا كالجليد، خالدًا، منيعًا، شيئًا كان يحدقّ في قعر الحفرة ويغمرها بالضوء، حتّى بانت جوانبها الأربعة بوضوحٍ وتألّقت جدران التابوت كأنّها معدنٌ صقيل سقط فوقه شلال من النور. كانت نظرة قادمة من أعماق اللامتناهي، نظرة خاطفة لم تدم إلا ثانية يتيمة، قبل أن يختفي البدر الشارد مرّة أخرى وراء حجب الغيوم الكثيفة، ومع ذلك أدرك بنيامين أنّ هناك عينًا أخرى، بخلاف عينه، كانت قد رأت قبر الشمعدان.

فأشار حينئذٍ على العبد فأهال الأخير التراب على الحفرة. وعندما فرغ من عمله، وسويت التربة تمامًا، أمره بنيامين بأن يغادر برفقة البغلة، لكن الأبكم أصدر إشارات يائسة. وحاول إفهام العجوز أنّ بقاءه هناك وحيدًا، في بلادٍ لا يعرفها، عرضةً للصوص وحيوانات البريّة المفترسة، أمر ينطوي على خطورة كبيرة، بل وترجاه أن يسمح له على الأقل إلى أقرب منطقة آهلة بالسكان، لكن العجوز رفض بحزم ونفاد صبر، وأمره بالمغادرة. وأمام تردّد العبد، استشاط العجوزُ غضبًا وطردهُ صارخًا في وجهه.

لبث بنيامين في مكانه يشيع الرجل والدابة ببصره حتّى اختفيا وراء أحد المنعطفات، فتنفس حينئذٍ الصعداء، إذ أن كلّ ما كان يرغب فيه في تلك الساعة هو البقاء وحيدًا في قلب الليل العظيم، تحت قبة السّماء الهائلة البديعة.

اقترب مجددًا من القبر، وتلا صلاة الموتى حانيًا رأسه: «عظيم ومقدّسٌ هو اسم الربّ الأزليّ، في هذا العالم، وفي الآخرة، الآن وإلى يوم البعث». ومع أنه أراد أن يضع حجرًا أو علامة ما على القبر، كما ينصّ العرف الديني على ذلك، إلا أنّه أمسك نفسه

في اللحظة الأخيرة. كان عليه أن يكتم السرّ حتى النهاية، فدار على عقبيه، وغادر المكان متوغلًا في الريف، دون أن يتلفت وراءه ولو لمرّة واحدة. لم يكن يعرف إلى أين تحمله قدماه، ولم يعد له من هدفٍ في حياته وقد دفن الشمعدان، ومع ذلك، عادت إليه طمأنينة قلبه وتوقفت روحه عن الارتجاف. لقد أنهى مهمّته ليصير الأمر بين يدي الربّ، فإن شاء أبقى على المينوراه مدفونة في جوف الأرض مسلّطًا الشتات على شعبه حتى نهاية الزمن وإن شاء أخرجه من قبره المجهول وأرجع الشعب إلى أرض الأسلاف.

وعلى ذلك النحو، راح العجوز يضرب على غير هدى في ذلك الليل الذي كانت كلّ من الغيوم والنجوم تتناوب على إعتامه وإنارته. ومع ذلك، راحت فرحته تكبر مع كلّ خطوة يخطوها، بعد أن تخلّص من العبء الذي أثقل حياته، وشعر بخفّة غريبة تنتشرُ في كلّ أطرافه. استرجعت مفاصله الواهنة مرونتها، كأنّما دهنت بمرهمٍ منعشٍ دافئ، فطفق يمشي بسهولةٍ كأنّه ينزلق على الماء. فجأة، شعر بنفسه وكأنّه صار يطير أكثر مما يمشي، وعندما رفع رأسه، ألفى الرياح ترفعه من كتفيه إلى الأعلى، ورأى الحياة تعودُ إلى يده المشلولة. أتراه حلم يقظة؟، كذلك سأل نفسه، قبل أن يترك نفسه لأحاسيسه الجديدة. كانت الدماء تتدفّق في عروقه بقوّة مندفعةً إلى صدغيه، كأنها نسغ شجرة، حتّى تعالى صفيرها في أذنيه. فجأة، سمع نشيدًا قويًا عجز عن معرفة مصدره. هل كان ما سمعه نشيدًا يصعد من جوف الأرض، حيث تحتفل جوقة الموتى بالعائد إلى الوطن، أم كانت موسيقا مفعمة بالحياة تنزل من النجوم المتألّقة ببريقٍ حيّ أخاذ؟ وعلى الرغم من أنه لم يتمكن قطّ من معرفة مصدر ذلك النشيد الحيّ، إلا أنّه واصل تقدّمهُ حثيثًا في جوف الليل المضطرب، كأنّه يطير بألف جناح.

***

في اليوم التالي، اكتشفت مجموعة من الناس، كانوا في طريقهم إلى سوق الرملة[76]، رجلًا مسنًّا يرقد ميتًا وسط حقل بمحاذاة الطريق. كان الرجل المجهول راقدًا على ظهره، حاسر الرأس، مبسوط الذراعين، كأنما في موته يريد أن يحتضن الأبدية، مطلوق اليدين، كأنه ينتظرُ هديّة عظيمة، مفتوح العينين، مشرق الوجه، مسالم الملامح. وعندما مال أحد التجار ليغمض عيني الميت في خشوعٍ، لاحظ أنّهما ممتلئتان نورًا وأن السماء بأسرها كانت تنعكس في حدقتيها المدوّرتين الهادئتين، كما لاحظ أنّ شفتيه كانتا مزمومتان بشدّة، كأنّهما تصرّان على كتم سرٍّ حتى في الموت.

وبعد أسابيع قليلة من موت بنيامين، حُمل الشمعدان المزيف إلى الأرض المقدسة ووضع تحت مذبح كنيسة أورشليم، كما أمر جستنيان، لكنه لم يبق هناك طويلًا. فبعد أن استولى الفرس على المدينة، قاموا بكسره وإذابة أجزائه فصنعوا منها قلائد وسلاسل لمليكهم وزوجاتهم. وهكذا محا الزمن وروح التدمير الكامنة في قلوب البشر مآثر الرّجال، واندثرت نسخة الصائغ زكرياء كأن لم يكن لها وجود.

أمّا الشمعدان الخالد، المحميّ بالأسرار، فلقد بقي داخل قبره، سليمًا، بعيدًا عن أيدي البشر، لا شيء يزعج رقدته، لا صروف الزمن ومساره الحتميّ، ولا تداول الغزاة على أرضه ولا حتى احتراب الشعوب والأمم بالقرب منه. وهكذا نجا من جشع البشر وتهافتهم على النهب.

(76) الرملة: من أكبر وأقدم مدن فلسطين التاريخية.

وفي أيامنا هذه، قد يحدث أن يدوس مسافرٌ بخطواته السريعة فوق التربة التي تضمه، وقد يأخذ بعض السابلة قيلولة الظهيرة حذو الطريق، قريبًا منه، ومع ذلك، لا أحد يفطن إلى وجوده هناك. لقد ظلّ الفضول البشريّ قاصرًا عن انتهاك حرمته بعد انسحابه من دنيا الأحياء، وبقي الشمعدان سرّ الربّ النائم في ظلمات العصور.

فهل سيبقى مخفيًّا عن أعين أبناء شعبه، ضائعًا منهم، بعيدًا عن شتاتهم وترحالهم بين المنافي، أم أنّه سيكشف عن نفسه عندما يعثر الشعب على نفسه؟ وهل سينيرُ هيكل السلام ثانيةً أم لا؟

لا أحد يدري!

نعم، لا أحد يدري!

النهاية